TAS-810-15/01

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

تخصص دراسات مقارنة

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة ماستر

الموسومة بـ:

النقد الأدبي عند طه حسين بين الفكر الغربي والعربي

إعداد الطالبة

❖ مقري مخطارية

بإشراف الأستاذ:

العرابي لخضر

السنة الجامعية : 1432 هـ /1433 هـ- 2011م/ 2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــر وتقديـــر

الحمد لله الذي أنار لنا درب العلم والمعرفة، وأعاننا على أداء هذا الواجب ووفقنا إلى انجاز هذا العمل .

أتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد على انجاز هذا العمل وفي تذليل ما واجهني من صعوبات، وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور " لعرابي لخضر " الذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته ونصائحه القيمة التي كانت عونا لي في إتمام هذا البحث.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى كل عمال مكتبة .

إهداء

بأنامل تحيط بقلم أعياه التعب والأرق ولا يقوى على الحراك يتكأ على قطرات حبر مملوءة بالحزن والفرح في آن واحد...

حزنا يشوبه الفراق بعد التجمع...

وفرح لبزوغ فجر جديد من حياتي هو يوم تخرجي...

هو بالنسبة لي يوم ميلاد لي ...

لعلني في هذه الكلمات البسيطة الحروف التي تتمايل بتمايل أنامل العاجزة أضع كلمات لكل من ترك بصمة في حياتي

وغير من مجراها وعمق في توسيع مداركي العلمية والعقلية...

لكل من لملم أحزاني بين فترة وأخرى ...

لكل من أشعرني بأنني لست وحيدة في مجتمع مختلف ...

إهدائي إليك أيتها الأم التي كنت عوناً ودفء بين أضلعي...أمي الحبيبة يمينة .

إليك أيها الأب الذي علمني بأنه عندما تطفأ الأنوار لابد من إضاءة الشمعة ولا نقوم بلعن الظلام ...إلى أبي الغالي سنوسي .

إليكم أطال الله في عمركم

أبعث أرق تحية وأعذب سيمفونية سمعتها وأرددها لكم بأنني أحببتكم من كل قلبي ...

سيقف قلمي هنا بُرهة ليستقر بين أنظاركم ما كتبت لعلها هذه المفردات تكون خير معينة حتى تتذكروني يوما ما...

إلى إخوتي: موفق – عبد المجيد – محمد – عبد الرحمان .

إلى أخواتي: نصيرة – وسعدية .

إلى جدي وجدتي أطال الله في عمرهما .

وإلى الأخوال الأعزاء وزوجاتهم وأولادهم .

إلى الصديقات: زينب – فاطنة – مروة – سعدية – رقية – نولر الهدى .

إلى صديقات دربي: مجدوب زبيدة ومصطفاي مريم .

إلى كل دفعة السنة الثانية ماستر، أدب عربي .

إلى الأخ الذي قدم لي يد العون يوم أغلقت الأبواب في وجهي إلى " محمد ".

أهدي ثمرة جهدي وباكورة عملي وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين .

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على الهادي الأمين، من بعثه، ربه رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ففي خضَمّ الصراع المرير بين دعاة الحق ودعاة الباطل بشتى صوره وأشكاله يتوجّب على المسلم أن يدافع عن هذا الحق الذي يؤمن به بقلبه وقلمه ولسانه ويده، فأعداء الإسلام لا يدّخرون جهداً في كيدهم للإسلام ودعاته ,مستغلّين كل شيء: الكلمة، والصورة،والعلم، والمادة ....يستخدمونها جميعاً وبطريقة ذكية ماكرة لخدمة أهدافهم البعيدة وتحقيق أغراضهم الخبيثة، وقهر الحق الذي يحاربونه.

ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى استغلال بعض السذّج من أغرار المسلمين، أو مرضى النفوس ليهدموا الإسلام من داخله ,لينشأ ضعيف الصلة بدينه، قويّها بأعداء دينه ,وعلى رأس هؤلاء من أُطلق عليهم مسمى " المستغربون "، الذين يسعون جاهدين للقضاء على هوية الأمة وصهرها في بوتقة الحضارة الأوروبية، مع ما يصاحب ذلك من الطعن في ثوابتها ومقدّساتها متلفّعين برداء البحث العلمي، والتجرّد الموضوعي....

ولهذا نشأ جيل من الأدباء لا ينتمون إلى أدباء الإسلام الذين التزموا بالإسلام عقيدةً وسلوكاً وكلمةً صادقةً نبيلة.

هم يظنون الأدب قصيدةً ينظمونها في قالب غنائي لا يلتزم بعقيدة أو خُلق... يظنونه رواية رخيصة تدور حول الجريمة والجنس، وتسعى إلى إشباع الرغبات وإفراغ الشهوات دون نزعة من خوف أو بقية من حياء...

يفعلون ذلك كله تحت مسمى الأدب، وما كان الأدب يوماً بهذه الصورة الشوهاء الممجوجة...

إن الأدب شعور صادق وخلجات نبيلة تتمثل في كلمات رطبة نديّة تجعل من الحلم رؤىً جميلة وواقعاً ملموساً يُعاش ;بعد ما كان شعوراً كامناً في النفس.

وفي عصرنا الحاضر الذي يتسم بالسرعة في كل شيء تشيع الدراسات الأدبية والنقدية الموجزة عن روائع الأعمال الأدبية قديما في الشرق والغرب .والتي تعطينا صورة عن أصحاب هذه الروائع، وأفكارهم ونزعاتهم .

إن الحركة النقدية المستمرة لا تكون في العادة إلا حول رجل فذ وناقد متميز .ولا شك أن أحد وجوه هذه الحركة هو الدكتور عميد الأدب العربي طه حسين .الذي أبدى اهتماما كبيرا بالنقد .

إن أفكار طه حسين النقدية نابعة من الأفكار الغربية وتأثره بالأوروبيين، وكذا تنوع المناهج التي استخدمها، وكثرة العلوم المساعدة التي استعان بها، والموضوعات والأغراض التي تناولها، والتي مست كل أطوار الأدب العربي، وظواهره المهمة، وإلى جرأة آرائه، ومخالفاتها لمألوف الأحكام قبله .

إن الحديث عن طه حسين في كتب الأدب والنقد حديث واسع، من الصعب الإحاطة بكل آرائه النقدية والفلسفية، نظرا لما خلفه من زخم فكري وأدبي، حتى غدا موضوعا من الموضوعات التي أثارت حفيظة الكثير من النقاد المعاصرين له وغير المعاصرين .

كيف لا وقد نبش بمؤلفاته وشك في ذاكرة ماضي الأمة العربية الإسلامية المتمثل خاصة في لغتها وأدبها وهو الأمر الذي يعنينا في هذا البحث، أراد غربلته قصد الخروج بنتائج مستنبطة من الواقع، تساير النظريات الفلسفية الحديثة، فحاول مناقشة قضايا فكرية وأدبية ونقدية فلسفية وحضارية وسياسة جديدة تعتمد منهجا عقلانيا .

لقد تميز إنتاجه بالغزارة والتنوع والاتساع، فقد كتب كثيرا بل إن ما كتبه ليغطي مائة كتاب على حد تعبير أحد النقاد، ففضلا عن مؤلفاته النقدية، فقد كتب في الإسلاميات، وعلم التربية والإصلاح الاجتماعي، والإبداع الأدبي حيث كتب القصة والرواية والسيرة الذاتية .

وبقدر ما اختلف النقاد فيما كتب، اختلفوا أيضا في تحديد مناهجه الرئيسية، وفي وصف أدواتها، كما اختلفوا في تقييم نتائجها وتحديد أهميتها .

إن باب القضايا النقدية لا يغلق أبدا، لأن الأعمال النقدية مثلها مثل الأعمال الأدبية، تحتاج باستمرار إلى قراءات جديدة، وإلى مزيد من الشرح والتأويل ولذلك فمن الصعب أن تكون الأمور النقدية محسومة، وإلى الأبد بدليل صدور كتابات عن طه حسين، تتباين الرؤى والنتائج .

أسباب اختياري لهذا الموضوع: مما لا شك فيه، أن ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع: دوافع ذاتية وأخرى موضوعية، رغم ما عقد عنه من دراسات أكاديمية ونقدية.

الذاتية: - كون طه حسين الأديب الوحيد الذي وصل إلى هذه المنزلة من الأدب – عميد الأدب العربي .

– مما جعل الكثير يرفعه فوق منزلته ويحيطه بهالة من التعظيم، يصفر دونها كثيرا،ولا شك أن الإعلام الهدام، من ورائه الإستشراق كان سببا لذلك .

-وفرة انتاج طه حسين الأدبي والفكري، حيث ربت مؤلفاته على الخمسين مؤلفا ما بين كتاب وقصة ورواية مؤلفة أو مترجمة .

الموضوعية: - الرغبة الملحة على الوقوف على هذه الشخصية، ومعرفة حقيقة ما تعتقده، حيث كنت أقرا عن هذا الكاتب وأنا في المرحلة الثانوية، وكانت الأطروحات التي تطرح عنه

قوية وعذبة جعلتني إحدى المعجبات بأدبيات طه حسين، ثم ما لبثت أن سمعت أقوال المخالفين والناقدين له بل والمهاجمين، وكانت نصوصه المخالفة في كتابه " في الشعر الجاهلي" و " على هامش السيرة " أوضح ما يستشهد على جنوحه نظرا لما احتوته من انحرافات عقدية وسلوكية شملت بعض أركان الإيمان وتجاوزتها .

لذلك تملكني شعور الفضول وروح الاستطلاع لمعرفة حقيقة الدكتور طه حسين .واخترت أن أضع هذه التجربة الفذة والمسيرة الطويلة لهذا الناقد .مرة أخرى موضع البحث، مع الحرص قدر الإمكان، على الكشف عن منابعه الفكرية والثقافية والنقدية العربية والغربية .

فالسنوات التي قضاها طه حسين في الجامعة المصرية القديمة وتلك التي قضاها في فرنسا، تركت بلا شك في فكره الاجتماعي والنقدي أثرا حاسما .

إشكاليه الموضوع:

سبق الإشارة إلى أن الدكتور عميدة الأدب العربي كان مثار ضجة أدبيه كبيرة، مما حدا بالنقاد لاتخاذ مواقف مختلفة منه، فمنهم من تحامل عليه وهاجمه لخلفيات غير علمية ولأسباب شخصية، ومنهم من ناصره وجامله، ومنهم من كان أكثر موضوعية فحاول أن ينصف الحقيقة العلمية .من خلال هذا الطرح ارتأيت أن أطرح التساؤلات الآتية:

- ما مدى تأثير النقد الغربي في النقد العربي من خلال شخصية طه حسين؟.
- وما مدى استيعاب طه حسين لمنهج الشك الديكارتي؟.
- وما مدى توظيفه في استنطاق الواقع التاريخي والأدبي للشعر الجاهلي؟.

منهجي في البحث:

لقد سرت في بحثي هذا على المنهج النقدي نظرا لطبيعة البحث مع الاستعانة بالمنهج التاريخي لما له من علاقة وطيدة بسيرورة البحث .

اضطررت إلى تكرار بعض النصوص أكثر من مرة لارتباطها بالمبحث الذي ذكرت ضمنه .وعند عرضي لنصوص طه حسين المخالفة استشهدت على مخالفتها بذكر نص أو نصين من القرآن الكريم .مع وضع تهميش للسور .

كما وقد تفاوتت فصول البحث ومباحثه في الطول من فصل إلى آخر.وذلك نظرا إلى غزارة المادة العلمية في موضع أكثر من موضع آخر .

خطة البحث:

حاولت الإجابة عن الإشكاليات السابقة في بحثي هذا الذي قسمته إلى:

تناولت في الفصل الأول البدايات النقدية عند طه حسين فبينا طبيعة هذا النقد، وحاولنا الكشف عن المصادر التي منح منها، لاسيما ما وجدناه عند أساتذته من المستشرقين في الجامعة المصرية من تنوع خصب في المناهج والدروس .

وكنت قد مهدت بذلك بدراسة النقد الأدبي الحديث في مصر، واستعرضنا مراحل هذا النقد منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، والتطورات التي عرفها على يد أعلامه من الأدباء والنقاد، قبل أن يتعهده طه حسين بالتوجيه والتأصيل بدءا من العشرية الثانية من القرن العشرين . وركزت على إبراز جوانب التجديد الذي استفاد منه طه حسين وجيله، بعد أن كانت الدراسات تركز على الجوانب التقليدية في هذا النقد .

أما في الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة مفهوم الانتحال عند طه حسين واقتراحه لمنهج ديكارت كبديل لمناهج تدريس الأدب في مصر ومبررات شكه في الشعر الجاهلي .باعتبار أن لغة هذا الشعر هي غير لغة الزمن الذي قيل فيه .هذه المبررات التي أدت إلى انقسام النقاد بين مؤيد ومعارض .مع إلقاء الضوء على أبرز المخالفات التي وقع فيها طه حسين للمجتمع الإسلامي والأدبي كنحل .

أما الخاتمة فقد خصصتها لتسجيل بعض النتائج العامة كما تراءت لي من خلال البحث .

صعوبات البحث:

بالنسبة للصعوبات التي واجهتني خلال إعدادي هذا البحث هو قلة المراجع المتعلقة بالموضوع في الجزائر، زاد من صعوبة بحثي وألزمني وقتا طويلا لتكملته.مما إستلزمني الإبحار على الأنترنت وتحميل بعض الكتب المتعلقة بهذا العمل .

وأرجوا أن يكون هذا البحث إجابة عملية على التساؤلات المطروحة التي أحاطت بفكر طه حسين الأدبي والنقدي .

وأخيرا لا يسعني إلا أن أشكر أستاذي المشرف الدكتور" لعرابي لخضر " على حسن إشرافه، وتوجيهاته العلمية القيمة التي كان لها أثر واضح في هذه الرسالة .

الفصل الأول: الرؤية النقدية عند طه حسين من منظور عربي

المبحث الأول: طه حسين الكتابات النقدية الأولى

المبحث الثاني: نماذج من النقد عند طه حسين

المبحث الثالث: مفهوم النقد عند طه حسين

المبحث الرابع:طه حسين بين النقد الأدبي و التاريخ الأدبي.

طه حسين أحد عمالقة الأدب العربي، لعب دورا كبيرا في الثقافة العربية من خلال دراساته الكبيرة .والتي كثيرا ما تجاوز بها الواقع الأدبي، فاشتعلت معارك نقدية وفكرية حول طبيعة مقاصده واتهم بتشويه الثقافة وتخريب المجتمع والإساءة للدين .

ولاشك في أن من يتتبع أعمال طه حسين فإنه يرى بالرغم من أنه حرم من النظر إلا أن الله منحه البصيرة .وخير دليل على ذلك مؤلفاته الضخمة، ولهذا لابد من الرجوع إلى الحياة الثقافية قبل طه حسين ففي عهد محمد علي إلى يومنا هذا كانت مصر ترزخ تحت أثقال الجهل والتخلف شأنها شأن الأقطار العربية الأخرى التي عانت في ظل حكم تركي.

وحينما دوت الحياة الفرنسية في مصر، في معارك قليلة كان النصر حليف الفرنسيين لأنهم كانوا يمثلون أمة حية تملك أسباب القوّة، وكان هذا الدوي هو الذي أيقظ المصريين من نوم طال .فعرفوا أن هناك أناسا آخرين يملكون علما وحضارة، وأنهم لا يملكون منهما شيئا .وكان أن خطوا الخطوة الأولى في درب شاق ..فكان الإتصال بهذا الغرب المتقدم والأخذ عنه، وكان التطور الحديث في كل مجالات الحياة فكان ..فن..وأدب..وكان نقدا..[1]

مر النقد الأدبي في مصر،بمراحل في العصر الحديث، قبل أن يتعهده طه حسين، وقبل أن يوجهه ويؤصل منهجه،وكان يستمد حياته من واقع الحياة العربية الجديدة، والحياة التي بدأت تدب في أوصال الفكر والأدب منذ القرن التاسع عشر.وكانت الدعوة إلى بعث الأدب العربي القديم والاستعانة بروائعه لبناء النهضة الأدبية الحديثة، فاستعان الشعراء بما نظم فحول الشعر العربي القديم، وحاولوا تقليدهم أولا ثم معارضتهم ومحاولة التفوق عليهم بما اكتسبوه من إمكانيات لم تكن لسابقيهم.[2]

---

1 – ينظر: كمال نشأت، النقد الأدبي الحديث قي مصر: نشأته واتجاهاته، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1983، ص 5 – 6 .

[2] - محمد زغلول سلام، النقد الأدبي الحديث: أصوله قضاياه ومناهجه، الأنجلو مصرية، القاهرة، (د.ت) ص 157.

وكانت الحركة النقدية وهي في نشأتها الأولى، تنفخ في روح المقاييس الأولى، وتحاول أن تحتذي النقد التطبيقي القديم وكان هذا طبيعيا، ولكن الملاحظ ان عملية التذوق قد تغيرت بعض الشيء بتأثير الحياة الجديدة التي تخالف في أساسها الحياة التي صورها الشعر العربي القديم .من هنا كانت الانطلاقة الذوقية بينت هذا التغير المتجه إلى أوروبا بنمط الحياة والسلوك الذي أرساه العائدون من أوروبا والمتأثرون بالجاليات الأجنبية التي ابتدأت تفد إلى مصر.[3]

فقد أحس الأدباء والمثقفون، أن حياتهم الجديدة في حاجة إلى أدب لا يقطع الصلة بعصره وبيئته، وبهذا تشكلت حركة نقدية جديدة، أخذت ترقى وتدين التقليد وتعيبه، وتدعو إلى التأثر بالآداب الأجنبية إلى مجاراة العصر .وهي في نفس الوقت تشير إلى بعض الأسس النقدية الغربية .[4]

تحدث يعقوب صروف، وهو صاحب ثقافة موسوعية عن النقد عامة، ولم يغفل الإشارة إلى الجانب الجمالي وإلى الصلة التي تربط بين الفنون الجميلة .فيقول: "الانتقاد هو النظر فيما يكتبه الكاتب لإظهار مليحه وقبيحه قصد تقديره حق قدره، وتنبيه الكاتب إلى ما أحسن فيه ليزيده حسنا ويرقيه كمالا .وإلى ما أخطأ فيه ليصلحه، وما قصر فيه ليكمله، وتنبيه القارئ إلى ما أحسن فيه الكاتب وأصاب لأتباعه فيه، وإلى ما أخطأ فيه أو لم يحسن لاجتناب الوقوع فيه". فهو يرى أن الانتقاد فن، وأن مداره على الفنون الجميلة، وسائر العلوم والفنون عامة عند المتقدمين، وهو يذكر بعد ذلك فوائد الانتقاد عند العرب القدامى، وعند الإفرنج، ويذكر الجرائد التي نشأت للانتقاد في فرنسا وانجلترا وألمانيا وأمريكا وإيطاليا وغيرها .وهو يبين أن النقدة الأوروبيين قد يخرجون عن شروط النقد إلى ما تنقلب معه الفائدة ضررا والحسنة سيئة .وهذه آفة النقد المسوغة لذمه، الحاملة على مجانبته، فهو

---

[3] - كمال نشأت، النقد الأدبي الحديث في مصر: نشأته واتجاهاته، ص17.

[4] - المرجع نفسه، ص21 .

كالفضائل وسط بين رذائلها، فإذا لزم حده حصلت منه الفائدة، وإذا خرج عنه إلى تقريظ أو إفراط نتجت عنه المضرة.

ولهذا يرى أن الناقد يلزم أن يكون بصيرا خبيرا يتحرى الصدق في القول، والإخلاص في النية، منصفا عادلا، باحثا منقبا، قاصرا النظر على ما قيل مغضيا عمن قال، راغبا في إحقاق الحق وإزهاق الباطل لترفيه العلوم وإعلاء الآداب والفضائل.... [5]

لقد اعتاد النقاد عند الحديث عن الأدب والنقد، في أخريات القران التاسع عشر، التركيز على ذكر الجهود والأقوال التي تدعو إلى إحياء أساليب أو طرائق الكتابة القديمة في الشعر والنثر، في العصر الجاهلي وصدر الإسلام خاصة، وإبراز خصائصها .وقد خالفنا ذلك إذ عمدنا إلى إبراز محاولات تجاوز المفهوم الكلاسيكي لمعنى الإستمرار في حياة الأدب، فقد وجدنا من النقاد من يحاول تخطي المقاييس التي وضعها القدامى .

وإن كان ذلك النقد المجدد نزرا في كميته، أقرب إلى الشذرات والخواطر، فإننا وجدنا من النقاد من تأثروا بالاتجاه التاريخي، في الدراسات الغربية، فانتقلوا من النقد التطبيقي للشعر إلى التركيز على الدراسات النظرية، مبينين أهمية دراسة الأدب ضمن ظروفه الاجتماعية.

إن جبهة طه حسين أطلت على المثقفين العرب بل على الجمهور الواسع مرتفة ملهمة هادية طوال ثلاثة عقود[6]،هذا الضرير الذي جعل الناس يبصرون امتدت به البصيرة بعيدا وراء البحر وهكذا عبره ذات يوم وانتقل إلى ضفة أخرى .ورمى بالعمامة في اليم إلى غير رجعة إليها .ومع عبوره هذا الأبيض المالح غبر أيضا من صحن الأزهر إلى ضفاف الثقافة الفرنسية

[5] - المرجع السابق، ص19

[6] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، دار الآداب، بيروت، 1985 ص 7 .

إلى مهاد اللاتينية واليونانية .لقد انتقل من ضفة عربية إسلامية سلفية إلى ضفة غربية ليبرالية معاصرة [7].

من البداهة القول إن طه حسين كان عظيما، وهو يشكل فصلا ينبض بالحياة والطرافة والإبداع في تاريخنا الأدبي والقومي . ومن هنا فإن عطاءه الذي امتد على أكثر من نصف قرن قد غذا قابلا للمناقشة، مطروحا دونما أسوار، وصار بإمكاننا ضمن الحدود التي رسمها هو في موضوعية ترتبط بأرض الواقع، أن ندرسه محايدين غير متأثرين بالصخب الذي كان، وبالمعارك التي داوت، أو بالإجلال السطحي الذي يرفض النقد ولا يدرك أن النقد الموضوعي، هو جزء من الاحترام الحقيقي الذي يحمله الدارسون للفكر الإنساني أولا ولذواتهم ثانيا .

وبما أن طه كان أديبا بالمعنى الأوروبي للكلمة، أي كان منخرطا في أحداث مجتمعه ملتزما بقضاياه، شاهرا سيف الرأي والموقف، لذا نجد تشابكا بين حياته ونسيج العصر الذي عايش شجونه وشارك في معاركه، من هنا تتأتى الخلفية أهمية الخلفية المجتمعية والتاريخية التي حرصنا أن نرسمها لعصر طه حسين .وكلما حالفنا التوفيق عبر هذه الأطروحة أن نتطرق لمقتضيات الدراسة التحليلية لأدبه الإبداعي والنقدي [8].

[7] - المرجع نفسه، ص 11 – 12 .

[8] - المرجع السابق، (بتصرف) ص 13 – 15 - 16 .

المبحث الأول:طه حسين: الكتابات النقدية الأولى

لم يكن طه حسين بعيدا عن تأثير الحركة الأدبية والنقدية التي كانت في الأزهر والجامعة المصرية أو ماكان منها في البيئة الثقافية العامة بل كان راصدا جيدا لها، متأثرا بها، مؤثرا فيها بنشاطه الفكري والأدبي الذي بدأه ولما يبلغ العشرين .إذا كان قد عرّفنا بصلته بالأزهر والجامعة، فهو يكشف لنا كذلك، عن ارتباطه المبكر بالحركة الأدبية خارجهما،فيخبرنا أنه تأثر مثل أبناء جيله بأهم كتاب نقدي، في ذلك الوقت، وهو " الوسيلة الأدبية " للشيخ حسين المرصفي . كما يحدثنا عن متابعاته لما يصدر من كتب تستحوذ على اهتمامات الكتاب والمثقفين .وقد تمثلت اهتماماته الأولى، بمؤلفات المنفلوطي والرافعي وجورجي زيدان وغيرهم .

أثر سيد بن علي المرصفي وكارلو نالينو في تكوينه الأدبي:

وكان هذا النشاط الأدبي، يكاد يرتبط من حيث التكوين العلمي بالشيخ سيد بن علي المرصفي الذي درس عليه الأدب في الأزهر، وبأستاذه نالينو الذي درس تاريخ الأدب العربي القديم في الجامعة [9].

كان طه يختلف إلى درس أستاذه المرصفي ولم يعد السادسة من عشرة فلزمه أربع سنين نشأ خلالها بينهما ود كبير .وقد تحدث طه، في أيامه، عن شخصية أستاذه وعلاقته به فكانت كما وصفها نوعا من المحبة يشوبها في نفس الفتى الإجلال والإكبار، وفي نفس الأستاذ العطف والحنان . ولاشك أن الأصل في هذه الصلة الوثيقة العميقة أن كلا من الشيخ وتلميذه وجد في الأخر طلبته وحاجته .فقد وجد المرصفي في طه حسين حاجته إلى التلميذ النجيب اللقنة:يقبل عليه، ويحفظ عنه، ويتجاوب معه، كما وجد طه حسين في

[9] - ينظر: محمد طه الحاجري، المرحلة الأزهرية في حياة طه حسين، مجلة الثقافة 25، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص26 .

أستاذه حاجته إلى العالم الواسع الأفق، المتحرر الفكر الذي لا يتقيد برأي سابق، ولا يتعبد لقديم أو محدث، ولايحبس لسانه في التعبير عما يراه، ضعفا أو خوفا أو نفاقا أو مصانعة.[10]

ولا بد أنه كان لهذه الصلة التي عوضته عما لقيه من إخفاق،في صلاته بكثير من شيوخه، كما عرفنا، أكبر الأثر في تكوينه الأدبي، فقد كان المرصفي بدروسه في الأدب، وبمسلكه في الحياة، وبالقيم التي يؤمن بها، يعتبر من أكبر الدعاة إلى حرية الأدب والفكر، وكان إعجاب طه حسين به إعجابا ملك عليه جوانب نفسه، سواء في فترة تلمذته له في الأزهر، أم بعد ذلك .[11]

أما درس الأدب في حلقة المرصفي، فيقول عنه طه حسين وعن أثره في تكوين الشخصية البصيرة المستقلة وتوجيهها: " ولا أعرف شيئا يدفع النفوس ولاسيما النفوس الناشئة، إلى الحرية والإسراف فيها أحيانا كالأدب، وكالأدب الذي يدرس على نحو ماكان الشيخ المرصفي يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم الحماسة، أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك . نقد حر للشاعر أولا،وللراوي ثانيا، وللشرح بعد ذلك، وللغويين على اختلافهم بعد اولئك وهؤلاء .ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف باطن الجمال في الشعر أو النثر، وفي المعنى جملة وتفصيلا، وفي الوزن والقافية وفي مكان الكلمة بين أخواتها. ثم اختبار للذوق الحديث في هذه البيئة التي كان يلقى فيها الدرس...[12] .

ذلك هو منهج المرصفي في درس الأدب، كما يصوره طه حسين، وكما يمكن أن نراه، في صورة ما، في كتابه الذي شرح به الكامل للمبرد، على فرق ما بين الكتاب والدرس في الإيجاز والبسط .فقد تحرى في الكتاب أن يكون لطيفا، لا يمل من مطالعه، ولا يسأم

---

[10] - ينظر: محمد طه الحاجري، المرحلة الأزهرية في حياة طه حسين، مجلة الثقافة 25، ص26 .

[11] - المرجع نفسه، ص 27 .

[12] - المرجع نفسه، ص 27 .

سامعه، كما يقول في مقدمته .وللدرس اعتباراته الأخرى وملابساته المختلفة، واستطراداته الكثيرة، وإيحاءاته التي تذهب بالكلام مذاهب شتى....

على أن هذه الصورة التي بقيت لنا، في كتاب المرصفي، من درسه لكتاب الكامل، تفسر لنا، وحدها، الافتتان الذي استولى على طه حسين بذلك الدرس، حتى انصرف إليه بقلبه وعقله وجوارحه .وحتى عرف بذلك –كما رأينا – في كل حلقة يشهدها، وفي كل مجلس يحضره .فكتاب المرصفي صورة نادرة من التحقيق العلمي والتذوق الأدبي، لا يكاد يدع شاهدا من شواهد المبرد في كامله حتى يورد تتمته، شارحا لها شرحا كاشفا لحقائقها، على ما يقتضي ذلك من طول التنقيب ومداومة التفتيش وحضور الذاكرة وإدمان التأمل، ولا يدع مغمزا يراه في الرواية أو الشرح حتى يشير إليه ويدبه على موضع الغميزة فيه، غير متألم ولا متحرج ولا ملجلج، دالا بذلك على معرفة واسعة بمصادر الأدب العربي وإحاطته بها: مطبوعها ومخطوطها، وعلم دقيق باللغة والتاريخ، في يقظة دائمة وبصيرة ثاقبة، وتذوق دقيق، لا يقف عند الظاهر، بل يمضي إلى ما وراءه....[13]

وبقدر ما كان طه حسين معجبا بأستاذه المرصفي، منصرفا إلى درسه،مستغرقا فيه، كان تأثره به، وخاصة في هذه الحرة التي كان يتناول بها المبرد .وفي نقده، وفي تعقبه لمواطن زلله .

وكذلك كان تأثره به في مذهبه الأدبي، في مثل ما يذكر الأستاذ أحمد حسن الزيات في فصل له عن المتنبي، إذ يقول: " ...وكان أستاذنا المرصفي، تغمده الله بالرحمة لا يصح في رأيه أحد من الشعراء المولدين، ولخاصة أبو الطيب، فدس في أذواق تلاميذه الكراهية

[13] - طه حسين ، الأيام، ج2، المجموعة الكاملة، المجلد الأول ، دار الكتاب اللبناني، ط 2،بيروت، ، 1974، ص 354.

له،والنفور من شعره .وتأثر بذلك الإيحاء رفيقاي: طه حسين ومحمود زناتي، وقاومه في نفسي تلك العوامل الأولى، فلم أر رأيهما فيه، ولم أمالىء تعصبهما عليه....[14]

وقد ظل طه حسين على رأيه هذا في المتنبي، كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه: " مع المتنبي " إذ يذكر أنه كان عنده بعيدا كل البعد عن أن يبلغ من نفسه منزلة الحب والإيثار .وأنه أتى عليه حينا من الدهر لم يكن يخطر بباله أنه سيعنى بالمتنبي أو يطيل صحبته أو يديم التفكير فيه .لكنه عاند نفسه، وحملها كما يقول، على ما تكره من الأمر لما رأى الدارسين يقبلون عليه، ويعنون بشخصيته وشعره، بل ويسرفون في هذا الإقبال وهذه العناية .فإذا هو مقبل على ديوانه يقرؤه[15] وإذا هو راض على بعض شعره، إذا هذا الرضا يصل أحيانا إلى حد الإعجاب[16] .

ومع ذلك فقد كان لابد من مرور ربع قرن تقريبا ليقبل على المتنبي، وليتخلص بعد ذلك من أثر أستاذه المرصفي ورأيه فيه[17] .لقد ظل طه حسين شغوفا بأستاذه، محبا له، يقول: " حب الأستاذ ودروسه قد أثرا في نفسي تأثيرا شديدا، فصاغاها على مثاله، وكونا لها في الأدب والنقد ذوقا على مثال ذوقه"[18] .

ومذهب أستاذه، كما لخصه في مقدمة كتابه ذكرى أبي العلاء: " إيثار للبدوي الجزل على الحضري السهل، وكلف بمناحي الإعراب في فنون القول، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق، وبغض النظر شديد لحكم الضرورة في الشعر، وللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الفخمة، إلى غير ذلك مما هو إلى

---

[14] - محمد طه الحاجري، المرحلة الأزهرية في حياة طه حسين، ص 27 .

[15] - طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف، ط11، القاهرة، 1976، ص 9 .

[16] - المرجع السابق ، ص 27 .

[17] - المرجع نفسه، ص 27 .

[18] - طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، ط6، 1963، ص 5 .

مذهب القدماء من أئمة اللغة ورواة الشعر أدنى منه إلى مذهب المحدثين من الأدباء والنقاد.

كل قديم في هذا المذهب جيد خليق بالإعجاب لرصانته ومتانته، وكل جديد فيه رديء سفساف لحضارته وهلهلته، فإن كان من المحدثين من أخذ نفسه بمذاهب القدماء، فسلك مسالكهم وتأثر خطاهم فهو حقيق أن نقرأه وننظر فيه، وإلا فدرسه لألسنتنا فساد، ولملكتنا كساد، وعلينا أن نلقي بيننا وبينه من الصد والإعراض حجابا صفيقا "[19].

ولنا أن نتساءل: ما مرد هذا المذهب الذي كان شذوذا في ذلك العصر عامة، وفي البيئة الأزهرية خاصة؟ لقد كانت غاية حركة الإحياء الأدبي في ذلك الوقت أن تتجاوز العصور المتأخرة إلى العصر العباسي، وتزيل الركام عن شعر ابن الرومي أبي العلاء ومن إليهم، ممن تمثلهم "مختارات البارودي" مثلا، وتجلوه وتبث الحياة فيه، ولكن المرصفي كان يرفض هؤلاء جميعا، ولا يقبل من الشعر إلا الجاهلي وما هو بسبيله، بريئا من الصناعة والزخرف وفنون البديع ألوان الفلسفة والمنطق .فلو أن الأمر في هذا يرجع إلى إيثار القديم لأنه قديم، ولما تسبغ عليه صفة القدم من جلال وقدسية، ولأنه بريء من الفسولة والضعف والركة، لما كان عليه بأس في أن يرى هؤلاء الشعراء الذين يمثلون أزهى العصور الإسلامية، يمثلون القديم أيضا، كما يمثلون العربية نقية صافية بريئة من شوائب العصور المتأخرة .

وإذن فهو لم يكن يؤثر البدوي أو الجاهلي لما فيه من صفة القدم، ولم يكن يرفض المولد أو المحدث لحداثته، وإنما هو شيء وراء ذلك كله .[20]

وهذا المذهب الذي كان المرصفي يدين به يرجع في جملته إلى البساطة والصدق وبغض التكلف والنزوع الشديد إلى الحرية .وربما أمكن القول بأن جماع ذلك كله هو الحرية فما يتكلفه الشاعر من صور الصناعة وفنون البديع، وما يتجشمه من التعمق الفلسفي أو

---

[19] - المرجع السابق، ص 5 – 6 .

[20] - ينظر: محمد طه الحاجري، المرحلة الأزهرية في حياة طه حسين، ص 28 .

التأليف المنطقين إنما هو قيد يتقيد به، ويبعده عن صدق التعبير وسماحته، ويقف حائلا دون انطلاق الفكر معه، وتجاوبه وإياه .[21]

ولكن الجامعة التي انتسب إليها طه حسين، وأقبل على دروسها، لم تلبث أن استبدت بهواه وشدته إليها، فكان من الطبيعي أن تزيد صلته بالأزهر وهنا، ولكن صلته بأستاذه المرصفي بقيت على حالها: مواظبة على حضور الدرس .

فالحياة الجديدة التي استقبلته في الجامعة، وما أخذته به من انصراف غلى دراستها، واستغراق فيها، والتزام دائم بتبعاتها، لم تضعف صلته العاطفية والعقلية بأستاذه الذي ظل يمثل له لحرية المطلقة التي لا تعبأ بما تفرضه ضرورات الحياة .

يقول عن الأولى: " سعدت بهذا الحب قديما، وسأظل به سعيدا طول الدهر، لأنه صادف قلبي في غضارة الطفولة ونضارة الصبا .ولأنه حب مصدره العلم، لم تفسده عناصر المادة .ولم تكدر جوهره مآثم هذه الحياة ."[22]ويتردد صدى الثانية في قوله:" أستاذنا الجليل سيد بن علي المرصفي أصح من عرفت بمصر فقها في اللغة، وأسلمهم ذوقا في النقد، أصدقهم رأيا في الأدب، وأكثرهم رواية للشعر، ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام ."[23] وهو لا يكاد يذكر أستاذا من أساتذته الذين يعتز بهم في مصر حتى يذكره معه، فإذا ذكر لطفي السيد قال: " أصبح للفتى أستاذان يختصهما بحبه وإعجابه، أحدهما يذكره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصفي، والآخر يذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في في الأزهر وجعل يدرس أطرافا من فلسفتهم في الجامعة، وهو لطفي السيد ."[24]

---

[21] - المرجع السابق، ص28 .

[22] - المرجع نفسه، ص 66 .

[23] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[24] - طه حسين، الأيام ج3، دار المعارف، القاهرة، 1974، ص 417 .

وإذا ذكر نالليو قرنه بالمرصفي، كما يقول في المقدمة التي وضعها لكتابه(تاريخ الآداب العربية من الجاهلية إلى عصر بني أمية): " .. أما أنا فقد سجلت غير مرة وأسجل الآن أني مدين بحياتي العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين: سيد بن علي المرصفي، الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار،وكارلو نالليو الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار .

أحدهما علمني طيف أقرأ النص العربي القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثله في نفسي وكيف أحاول محاكاته .وعلمني الأخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص، وكيف ألائم بينها، وكيف أصوغها آخر الأمر علما يقرأه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئا ذا بال .وكل ما أتيح لي بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر وفي خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذي تلقيته منهما في ذلك الطور الأول من أطوار الشباب .بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت في قراءة كتب الأدب القديم، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوروبيين في جامعة باريس، وحين أمعنت في قراءة الأدب الحديث[25] .

غير أننا نحسب أثر المرصفي في طه حسين لا يقف عند هذا الحد، " فكما أنه مدين له بحياته العقلية من هذه الناحية، فإنه مدين له أيضا بالروح العلمية التي تدعو إلى حرية الفكر واستقلال الرأي والحفاظ على المبدأ، والارتفاع بالعلم عن كل ملابسات الحياة الدنيا، وتقييمه خالصا من كل اعتبار آخر لا يتصل به، ولا يصدر عنه ."[26]

ولا شك أن طه حسين قد تأثر في هذا المذهب القديم أيضا، بأستاذيه: حنفي ناصف والشيخ المهدي، في الجامعة المصرية، وكانا يمثلان مع المرصفي، طريقة القدماء في فهم الأدب ونقده[27].

---

[25] - كارلو نالليو، تاريخ الآداب العربية، طه حسين، (مقدمة)، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1970، ص 8 – 9 .

[26] - محمد طه الحاجري، المرحلة الأزهرية في حياة طه حسين، ص 66 .

[27] - محمد أحمد الغمراوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1969، ص 19 .

تأثره بأحمد لطفي السيد وعبد العزيز جاويش:

لا بد أن نستبين تأثر طه حسين، في هذه المرحلة أيضا، من حياته، بعلمين كان لهما تأثير واضح على فكره ومن ثم على توجهاته الأدبية، هما: أحمد لطفي السيد والشيخ عبد العزيز جاويش .فإذا كان طه حسين قد حصل العلم من دراسته في الأزهر والجامعة، حتى تكون له مذهب خاص، كما قال في دراسة الأدب، فإن التوجه إلى الكتابة لا بد له من بداية، وقد جاءت هذه البداية مصادفة .إذ نتذكر ما كان من أمره عندما تظاهر شيخ لأزهر بشطب اسمه مع زميلين له من السجلات لرمي الهلع في قلوبهم، وكيف بادر طه إلى تدبيج مقالة هجومية يجهر فيها بحرية الرأي ومضى بها إلى (الجريدة) للاحتجاج على تصرف الشيخ الأكبر .وهنا تعرف إلى لطفي السيد الذي كان يرأس تحرير هذه الصحيفة ويديرها، وقد تدخل بنفسه لدى شيخ الأزهر... لإصلاح ذات البين وإعادة الأحوال إلى مجراها الأول .[28]

ذلك الوقت المبكر" سلك الفتى في حياته طريقا لم يكن يقدر أن سيتاح له سلوكها، فاتصل بالجريدة ومديرها الأستاذ لطفي السيد، وقويت الصلة بينهما حتى كان يلقاه مرات في كل أسبوع،وكان يلقى عنده قوما كثيرين، وكانت أحاديث الأستاذ وزائريه تفتح له أبوبا من العلم والمعرفة لم تكن تخطر له ببال من قبل، ولم يكن يقدر وجودها فضلا عن اتصاله بها من قريب أو بعيد.[29]

وإذا بهذا الفتى الذي كان قد رثت الأسباب بينه وبين الأزهر فزهد فيه، وضاق به، ومل من أحاديثه المعادة، فصار" لا يمنحه من الوقت إلا أقصره، ولا يعطيه من الجهد إلا أيسره"[30] تنفتح " له أبواب من المعرفة الجديدة ينشرح لها صدره وذهنه، إذ هاهو يدرك

---

[28] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 245 .

[29] - طه حسين، الأيام ج3 ، ص 396 .

[30] - المرجع نفسه، ص 395 .

أن في الدنيا علما غير هذا العلم الأزهري الذي ... سقطت الهالة التي كان يعقدها عليه منذ أن شرع يسمعه، باستثناء الشيوخ القليلين ومنهم شيخه العتيد سيد المرصفي"[31] .

وإذا كان المرصفي " قد خط في حياة طه معلما لا يمحى أثره، فها أن أستاذا آخر يدخل حياته ويرتسم معلما آخر باقيا في صفحة وجوده."[32]فقد أخذ لطفي يقرب طه إليه ويرغبه في زيارته، ويلقى منه الترحاب والود[33]، "آخذا في التحدث إليه والاستماع منه، فاتحا له أبوابا من التفكير لم تخطر له على بال."[34]وإذا كان طه حسين "ميّالا إلى الأدب شغوفا به، فإن لطفي، الإنسان المتأمل، كان أيضا واسع الإطلاع على الأدب العربي .فإذا بطه يسمع منه شعرا لم يترام إلى سمعه من قبل، على كثرة ما سمع من أستاذه المرصفي ومن اختلافه إلى دار الكتب ... خلال النهار .فلطفي السيد كان ينشد الكثير من أشعار العرب القديمة ويعرف متخيرها عن ظهر قلب، إلى جانب فقهه بمتن اللغة وبمأثور الأقوال."[35]

وهكذا توطدت مكانة لطفي السيد في إدراك طه حسين "حتى أصبح للفتى أستاذان يختصهما بحبه وإعجابه، أحدهما يذكره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصفي، والآخر يذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في الأزهر وجعل يدرس أطرافا من فلسفتهم في الجامعة، وهو لطفي السيد."[36]

وهنا طرأ على حياة طه حسين أمر جديد جليل جميل، بحيث جعله يكاد يكون منشغلا عن صديقيه، إنه بدأ يكتب في الصحف، لا يكتب إلا حبا في الكتابة ورغبة فيها

---

[31] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 246 .

[32] - المرجع نفسه، ص246 .

[33] - ينظر، طه حسين ، الأيام، ج 3، ص 416 – 417 .

[34] - المرجع نفسه، ص 416 – 417 .

[35] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 246 – 247 .

[36] - طه حسين، الأيام ج3 ، ص 417 .

ولا يكسب بها درهما ولا مليما [37] وكان لطفي السيد خير مشجع وموجه، إذ يدعو طه إلى أن يكون مقتصدا في لفظه، متأنيا في لفظه تفكيره .ولنا أن نتصور المتعة التي لا توصف والرضا الذي يخالج النفس، عندما يشرع الإنسان بتعاطي الكتابة في مستهل إطلالته الأولى .ولقد رضي طه عن نفسه، وحمله هذا الرضا على المضي في الكتابة .وكان لطفي له راعيا بل كما يذكر سلامة موسى، محابيا أحيانا... [38] وهو أحد رجلين يدين لهما طه حسين بالفضل في أنه غدا كاتبا .أما الآخر فهو عبد العزيز جاويش .

وكان مكتب (الجريدة) حافلا بالأشخاص أصحاب القدر الذين يفدون عليها من رجال السياسة والثقافة، فهي كانت الناطقة بلسان حزب الأمة، وكان رئيس تحريرها لطفي السيد قطبا في جاذبا لنخبة المثقفين ذوي النزعة الليبرالية، وكان نافذ التأثير متسلطا على العقول . إن ملازمة طه حسين لمكتب الجريدة جعلته يتعرف إلى كثيرين من أعلام مصر الحديثة الذين زاملهم بعدها وعارك وإياهم الخطوب... [39] .

إن توطد صلة طه حسين بالأستاذ أحمد لطفي السيد واختلافه إلى مكتبه بالجريدة بشكل منتظم، وشروعه بتعاطي الكتابة على صفحات الجريدة، إلى جانب انغماسه بعالم

الجامعة المصرية – وكانت قد نأت به الظروف عن أروقة الأزهر – عوامل اجتمعت كلها لتهيء له" نكهة جديدة وأفقا واعدا .ولا شك أن لطفي السيد كان، فضلا عن الجامعة وفي مناخ نظير لها، المحور لهذا الانقلاب الذي طرأ على سيرة طه العقلية، فجددها على نحو جذري، ولاءم بين أميالها الكامنة التي كانت تبحث عن متنفس لها فوجدت ضالتها بالجامعة الناشئة لتوها وبهذا العقل، [40] الذي يقول فيه طه حسين، في حديث الأربعاء: "أما أنا فلست

---

[37] - المرجع نفسه، ص 421 .

[38] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 247 .

[39] - المرجع نفسه، ص 248 – 249 .

[40] - المرجع السابق، ص 249 .

أعرف له نظيرا في الكتابة ولا في التفكير ولا في الترجمة، وأزعم أن ليس بين المصريين وغير المصريين من يستطيع أن يجد له نظيرا في هذه الوجوه الثلاثة من وجوه الحياة الأدبية: التفكير والكتابة والترجمة."[41]

كان طه حسين معجبا بما أسدى لطفي السيد إليه وإلى جيله من تنوير وإصلاح، فهو في نظره داعية كبير إلى التجديد والعقلانية والحرية والكرامة الفردية، ولئن ظلمه جيله فالتاريخ منصف وله وفي .[42]

إن مقالات لطفي السيد في (الجريدة) كانت،في رأي طه حسين، شيئا جديدا في الأدب العربي إذ يجد فيها لذة لا يستطيع أن ينصرف عنها[43]، وإن ترجماته الكبرى لآثار أرسطو في الأخلاق والسياسة والمنطق كان ظهورها حدثا استثنائيا عظيم الأهمية في حياة مصر[44]، وإن حياة لطفي السيد نفسها في مكابدة السياسة والانزواء عنها ثم معاودة الاشتغال بها تشير إلى مفكر أوروبي النمط .[45]

ولقد كان لهذا المفكر مكانة في حياة طه حسين، لا ينازعه فيها أحد. يقول: "كان أحمد لطفي السيد لي أبا وصديقا وأستاذا، وكان لي أكثر هذا كله ."[46] وتجلى ذلك في إهدائه كتاب (حديث الأربعاء) الذي جاءت فيه هذه العبارة: "تجلة تلميذ، وتحية

---

[41] - طه حسين، حديث الأربعاء، ج3، دار المعارف، القاهرة، ط10، 1976، ص 49 .

[42] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 249 – 250 .

[43] - طه حسين، حديث الأربعاء، ج3، ص 50 .

[44] - المرجع نفسه، ص 49 .

[45] - ينظر: المرجع السابق، ص 51 – 52 .

[46] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 250 .

صديق."[47] ونتيجة للعلاقة القوية التي كانت بين طه حسين وأستاذه لطفي السيد نتج أكثر من مظهر:

أولا: قول طه حسين:" ...ولنقدم صبيتنا وشبابنا من اللغة وعلومها وآدابها ما يفهمون ويسيغون ويذوقون .وأؤكد لهؤلاء السادة أن الشباب لا يفهم النحو القديم ولا يسيغه، ولا يذوقه ولا ينتفع به، بل يبغضه أشد البغض، ويضيق به أقبح الضيق ..."[48] إلى أن يقول: " فنحن بين اثنتين: إما أن نيسر علوم اللغة العربية لتحيا، وإما أن نحتفظ بها كما هي لتموت"[49].

ويقول في موضع آخر:" وأنا أسأل المحافظين عمة والأزهريين خاصة، وأرجو منهم أن يجيبوا مخلصين، أقسم عليهم في ذلك باللغة التي يؤثرونها، والدين الذي يحبونه، والوطن الذي يريدون أن ينصحوا له .أحق أننا نستطيع أن نذيع اللغة العربية قراءة وكتابة وفهما في مدارس التعليم الأولي التي تلتقي الناس جميعا، ثم نطمئن ألى أن الصبية سيخرجون من

هذه المدارس قارئين كاتبين فاهمين على خير وجه وأكمله، دون أن نيسرها للكتابة والقراءة وقواعد النحو وأصول التصريف .أم هم يريدون أن يكون التعليم الأولي للغة صورة من الصور وشكلا من الأشكال يكتفي منه بأن يقدر الصبي على أن يرسم الحروف ويتهجاها ويفك الخط كما يقولون، حتى إذا خرج من المدرسة وبعد بينه وبينها العهد شيئا نسي رسم الحروف وتهجيها، وعاد الخط مستغلقا عليه أشد الاستغلاق ."[50]

فمن هذه النصوص لطه حسين يتضح لنا أنه كان يسعى إلى تسهيل اللغة العربية بإحداث بعض التغيير فيها .

---

[47] - المرجع السابق، الصفحة نفسها .

[48] - طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ص 51 – 52 .

[49] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 250 .

[50] - المرجع نفسه، ص 250 .

ثانياً: ذكرتُ سابقاً من النقد الذي وجّه للطفي السيِّد رسمه لمنهج الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية حيث يقوم على التبعية العامة للنفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني والفكر الغربي... وطه حسين نفسه قد صرّح كذلك بالتبعية الكاملة للغرب و اعتبر مصر جزءاً من الغرب لا من العرب في سائر حياتها .

يقول في كتابه مستقبل الثقافة في مصر: " علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحبْ منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع ".[51]

ويقول في اعتبار مصر جزءا من الغرب وليس العرب في نمط حياتها من جميع النواحي: "حياتنا المادية أوروبية خالصة في الطبقات الراقية .وهي في الطبقات الأخرى تختلف قربا وبعدا من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات، وحظوظهم من الثروة وسعة ذات اليد.ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية.نتخذ من مرافق الحياة ومظاهرها ما يتخذون .نفعل ذلك عن علم به وتعمد له، أو نفعل ذلك عن غير علم وعلى غير عمد، ولكننا ماضون فيه على كل حال .وليس في الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها عليه الأوروبيون..."[52]

وكذلك قوله: "كل هذا يدل على أننا في هذا العصر الحديث نريد أغن نتصل بأوروبا اتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم، حتى نصبح جزءا منها لفظا ومعنى وحقيقة وشكلا. وعلى

---

[51] - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص 54 .

[52] - المرجع السابق، ص 41 .

أننا لا نجد في ذلك من المشقة والجهد ما كنا نجده لو أن العقل المصري مخالف في جوهره وطبيعته للعقل الأوروبي "[53].

ومن هنا يتضح لنا توافق كل من طه حسين ولطفي السيد في تمجيد الغرب والسعي الحثيث وراء تقليده، بيد أن هناك ثمة فرقا يسيرا بينهما وهو أن لطفي السيد مجد الغرب ممثلا في بريطانيا، وطه حسين مجد الغرب ممثلا في باريس .

ثالثا: مقاومته للتضامن العربي والإسلامي: ويتمثل ذلك في دعوته للفرعونية، والقومية، والشعوبية، واعتبار مصر جزءا من حضارة البحر الأبيض المتوسط، وكذلك اعتبارها جزءا من اليونان.

فهو يحاول أكثر من مرة أن يفصل مصر عن الدول العربية والإسلامية، مرة حين ينسبها إلى الفراعنة، ومرة حين ينسبها إلى حضارات دول البحر الأبيض المتوسط، وخاصة اليونان، ومرة حين يعتبرها جزءا لا يتجزأ منه، ومرة حين يحيي فيها التمسك البغيض بوطنيتها وقوميتها دون أن يكون لها ثمة منبع أصيل تنتمي إليه وتعتز بالانتماء إليه، كما هو الحال مع الخلافة الإسلامية التي لا يريد أن يقرها .

وقد يتخذ في ذلك أسلوب التلميح تارة والتصريح تارة أخرى، فأما تلميحه في كون مصر جزءا من حضارة البحر الأبيض المتوسط فيظهر في قوله: "إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط ".[54]

---

[53] - المرجع نفسه، ص 44 .

[54] - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص 21 .

ويصرح في موضع آخر بيونانية مصر فيقول: "وأصبحت مصر دولة يونانية أو كاليونانية، وأصبحت الإسكندرية عاصمة من عواصم اليونان الكبرى في الأرض، ومصدرا من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم، بل أعظم مصدر لهذه الثقافة في ذلك الوقت" .[55]

هذا مجمل ما تأثر به طه حسين من صديقه ورفيق دربه أحمد لطفي السيد الذي كان دائم الدفاع عنه في كثير من المواقف، كما من شأن من طه حسين في الجامعة وأعطاه الحرية المطلقة في كل ما يكتب من غير ما محاسب له، من منطلق حرية الرأي التي تبيح لهم النيل من كل شيء حتى المقدسات....

وفي المرحلة ذاتها، عاصر طه حسين علما آخر كان له تأثير واضح على مجرى حياته آنذاك وهو الشيخ عبد العزيز جاويش، الذي اتصل به، وتردد عليه واستمع له .وكان جاويش آنذاك الصوت الجهير للحزب الوطني الذي أسسه الزعيم مصطفى كامل .[56]" وكان متألقا لا يأخذه في ما يراه الحق رهبة."[57] ولا ريب " أن مزاج جاويش الحاد المقدام وجد صدى لدى طه حسين الذي كان عنده استعداد للنقد والجراءة فيه"[58] فكان جاويش يغري الفتى بالتعرض لشؤون الأزهر وشيوخه الذين كان يكره منهم ما "كانوا يلجؤون فيه من المحافظة."[59] وكان طه حسين يومها، " يقوم بخطواته الأولى في ميدان الكتابة النثرية، فإذا بالشيخ يسدد خطاه ويقذف به، وهو الطري العود بعد، في لجج النقد السليط الذي لم يكن غريبا على مزاج طه، وإنما وجد من أعانه عليه وفتح له الباب العريض للمضي فيه ."[60]

---

[55] - المرجع نفسه، ص 29 .

[56] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 255 – 256 .

[57] - المرجع نفسه، ص 256 - 257 .

[58] - المرجع نفسه، ص 257 .

[59] - طه حسين، الأيام ج3، ص 398 – 417 .

[60] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 257 .

ولا شك أن مما خفف من حدته، وهو يخوض تجربته الفنية في الكتابة، أنه كان في الوقت نفسه على اتصال وثيق بأحمد لطفي السيد، الذي كان، على نقيض جاويش، يتسم بالهدوء والاعتدال في الرأي، والجنوح إلى المنطق .

توثقت الصلة بي طه حسين وعبد العزيز جاويش: "إذ كان الفتى يختلف إليه كما كان يختلف إلى مكتب لطفي السيد، وكان يرجو رضاء هذا كما كان يرجو رضاء ذاك، فجاويش لسان الحزب الوطني، ولطفي السيد فيلسوف حزب الأمة، وجاويش مدير (اللواء)، جريدة حزبه، ولطفي السيد مدير (الجريدة) لسان حزبه، والانصهار بخبرة الرجلين أجدى على طه حسين من الانطواء في كنف أحدهما، فمدير الجريدة قريب من عقله، وملجأ لتحقيق آماله، إذ كان يغريه بالكتابة، ويحثه عليها حثا، ويعلمه القصد في اللفظ والأناة في التفكير، ومدير اللواء قريب من طبيعته، معين على تفجير ثورة أعماقه، إذ كان يحبب العنف إليه، ويرغبه فيه، ويزين في قلبه الجهر بخصومه الشيوخ، والنعي عليهم في غير تحفظ ولا احتياط، وهذا جانب في تكوين شخصية طه حسين قد انغرست بذوره في سلوكه ووجدانه منذ أن سلك طريقه إلى الأزهر، واصطدم بشيوخه هناك،وترسبت أثاره في عقله وأشجانه،منذ أن ترك من أجلهم الأزهر،وسعى الى الجامعة،وحطم في طريقه اليها العوائق والأشواك..."[61]

وتحقق له هذا كله حين فتح له جاويش الباب للكتابة،ومد له سطوته ومكانته بالرعاية،وفي هذا كله يقول طه حسين عن أثر الرجلين ومنهجهما في تكوينه:"...وكان صاحبنا موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت،أحدهما مذهب الاعتدال والقصد،ذلك الذي كان الأستاذ لطفي السيد يدعوه اليه ويزينه في قلبه، والآخر مذهب الغلو والإسراف ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به، ويحرضه عليه تحريضا

---

[61] - محمد صادق الكاشف، طه حسين بصيراً، مكتبة الخانجي بالقاهرة: مطبعة المدني، ط1، 1987، ص 125.

.وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعا، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني"[62].

نفهم من هذا أن لطفي السيد اقتصر فضله على تعرف طه حسين على كبار الأدباء ورجال الصحافة من أمثال محمد عزمي، والسيد كامل، وهيكل وغيرهم .

هذا إلى جانب أن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلا آخر عليه" فهو الذي عرف الفتى إلى جماهير الناس، ودفعه بين أيديهم ذات صباح منشدا للشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون ... ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز بالفتى عند هذا الحد، ولكنه علمه الكتابة في المجلات، فقد أنشأ مجلة (الهداية)، وطلب إلى الفتى أن يشارك في تحريرها، ثم ترك له الإشراف على هذا التحرير، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول ..."[63]

كان للشيخ عبد العزيز جاويش الدور الكبير في تعليم طه حسين تقريض الشعر، وكذا الكتابة، بالإضافة إلى جعله يرأس مجلة التحرير الأمر الذي أكسبه خبرة كبيرة في مجال الصحافة .

من أجل هذا كله كانت أوائل القصائد السياسية لطه حسين هي قصيدته (ثناء وهناء) التي يهني فيها عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من السجن، بعد كتابته للمقال التاريخي الذي كتبه في اللواء بعنوان (ذكرى دنشواي)- كما أسلفت – حيث ندد فيه بالاحتلال وأعوانه، ووجه فيه التهم والملامة لبطرس غالي ناظر النظار إذ ذاك، وكان يوم الحادث رئيس المحكمة المخصصة التي علقت المشانق قبل النظر في القضية أو إصدار الحكم،

---

[62] - طه حسين، الأيام ج3، ص 398 .

[63] - محمد صادق الكاشف، طه حسين بصيراً، ط1، ص 125 .

وكذلك وجه التهم والملامة لفتحي زغلول وكيل وزارة الحقانية إذ ذاك، وخليفة بطرس غالي في هذا المنصب، وكان عضوا بهذه المحكمة، ومن فقرات هذا المقال قوله"... سلام على تلك الأرواح التي انتزعها بطرس باشا غالي – رئيس المحكمة المخصصة القضائية – من مكامنها في أجسامهم، كما تنتزع سلوك الحرير من خلال الشوك، قبضها بيده، فقدّمها قرباناً إلى ذلك الجبار الظالم الغاصب القاهر، القائم في بلادنا، بنفاقنا و ضَعة مقاصدنا، المستبد بالأمر فينا، بسبب تفرقنا و ضعف عزائمنا، المسيطر علينا بنفر منا يخشون الانجليز أكثر مما يخشون الله، ويرغبون في المال والرقي ولو شقيت في سبيل ذلك بلادهم واستبيحت حرماتهم ... سلام على أولئك الذين وقف(هلباوي بك) فثار فيهم ثوران الجبارين، ثم انثنى على رقابهم فقصمها، وعلى أجسامهم فمزقها، وعلى دمائهم فأرسلها تجري في الأرض تلعن الظالمين، وتتوعد الآثمين ..." الخ ذلك المقال[64]

وقد قال طه حسين مادحا جاويش:

"الآن حق لك الثناء فلتحي، وليحيى اللواء

ولتحيى مصر وأهلها شاء العدا أو لم يشاؤوا"

ثم يختتم قصيدته بقوله مخاطبا جاويش:

" لك من بني مصر جميعهم التجلة والثناء

فأسلم لمصر وأهلها إنا لنجدتك الفداء..."[65]

ولكن بالرغم من عمق هذه العلاقة بين طه حسين وجاويش، ونظرا لطبيعة طه حسين المزاجية،السريعة التقلب، والتحول- وخاصة بعد عودته من فرنسا حيث تنكر لكثير من

---

[64] - محمد صادق الكاشف، طه حسين بصيراً، ص 126 .

[65] - المرجع نفسه، ص 127 .

أصدقائه وأساتذته – فقد طرأ على علاقتهما ما أضعفها حيث إن هذه العلاقة القوية لم تخل من خلاف على طول الخط، ودليل ذلك ما دار بينهما من حوار حول موضوع (السفور والحجاب). وإن كان هذا الموضوع لم يعد في أيامنا ذا بال لأن الزمن تكفل بحله، فقد كان ذات يوم أمرا راهنا على المجتمع العربي وتصطرع من أجله الآراء أي اصطراع .ويصب طه شواظ غضبه على الحجاب ، لأنه في نظره وسيلة صناعية لا جدوى منها في اتقاء الشر، وأنه إذا كان هناك من شر فإن علاجه لا يكون بإسدال الستار عليه، وإنما بمعالجة النفوس وإصلاحها وتهذيبها، وذلك " أن الحجاب سبيل من سبل النفاق وأنه يجري تحته من السيئات والآثام مالو ظهر لنا لاستطعنا علاجه " [66]

وقد كان في نية طه حسين أن يتابع مقالاته حول المرأة، لكن الشيخ عبد العزيز جاويش لم يرق له هذا التصدي لموضوع الحجاب والسفور، فلا خير عند رأيه، من ولوج هذا الأمر، إذ أن طه " حمله على أن يفتح بابا كان مقفلا ولم نكن في حاجة إلى ولوجه "[67].

وبهذا نخلص إلى أن العلاقة بين طه حسين وأستاذه عبد العزيز جاويش لم تبق على ما هي من صفاء تام، نظرا لمزاج طه حسين المتقلب، إضافة إلى مخافة جاويش له في بعض آرائه المخالفة .

[66] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 269 .

[67] - المرجع نفسه، ص 270 - 271 .

المبحث الثاني: نماذج النقد عند طه حسين

نماذج من النقد اللفظي:

ولعل أبلغ تمثيل على هذا النقد اللفظي الذي لا يتحرز من إطلاق الأحكام، والذي يخالطه شيء من الشتم، والذي نعته طه حسين، في الأيام ، بالسخف، في المقالات التي كتبها عام 1910 ناقدا فيها (النظرات) لمصطفى لطفي المنفلوطي تحت عنوان : (نظرات في النظرات)[68]

كان طه في بداية أمره يتابع " نظرات المنفلوطي راضيا عنها، معجبا بها، ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها .ولكنه لم يكد يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق، وكتب يعيبها ويغض منها ."[69]

ولم يشجعه الشيخ عبد العزيز جاويش في معركته مع الأزهر وشيوخه فقط وإنما شجعه أيضا، على نقد أدباء عصره .وهاهو يفرح أشد الفرح بنقده لنظرات المنفلوطي، ويستزيده من الكتابة، ويحرضه عليها ويلح في التحريض" حتى ألقى في روعه ألا يدع فصلا من فصول المنفلوطي، إلا اختصه بفصل من النقد"[70] حتى بلغت المقالات التي نشرها الثلاثة والعشرين في صحيفتي(الجريدة) و(العلم)[71] .

إن تحامل طه حسين على المنفلوطي وتطاوله عليه، " وتسفيهه إياه أوضح من أن يحتاج إلى دليل .فالمقالات تعج بالتهم الشخصية، فطه يرمي المنفلوطي بالسرقة في الكتابة

---

[68] - طه حسين، الأيام ج3، ص 418 - 419 .

[69] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[70] - نفس المرجع، ص 419 .

[71] - ينظر: أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 259 .

والسخف والتخليط والغرور والجهل والسفه والخطل والانتحال والأغاليط والتسرع والوهم والحمق ... فالقائمة طويلة، ومن الطبيعي أن المنفلوطي لم يحفل بالرد عليها ..."[72]

ولما أنشأ الشيخ جاويش مجله (الهداية) الشهرية بعد ذلك، في فبراير 1910، طلب من الفتى أن يشارك في تحريرها، بل كاد يترك له أمر الإشراف عليها . " ولم تخل الهداية من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعا ."[73]

وكان خصمه هذه المرة، الشيخ رشيد رضا" وقد أسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد في ذلك الجدال"[74] حين اتهمه بأنه اتخذ الدين سبيلا إلى الشهرة . " ولم يكتف جاويش بنشر هذه الأحاديث بل إنه حث طه على المضي فيها، لأنه كان كارها لعلاقة رشيد رضا بالخديوي وابتعاده عن خط الإمام محمد عبده واغتراره بنفسه .وقد توسل طه في هذه الأحاديث، كما يقول، الألفاظ القاسية والسخرية اللاذعة ."[75]

وهاجم جورجي زيدان في سلسلة مقالات نشرها في صحيفة (العلم) ومجلة (الهداية) عام 1910 ، انتقد فيها كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) . آخذا على صاحبه الإبهام في العبارات، مخالفا إياه في طريقة تقسيم الكتاب إلى أعصر والشعراء إلى طبقات .وقد رد جورجي زيدان على اعتراضات الشيخ طه حسين .فما كان من طه، وهو المولع بالمجادلة والمساجلة، إلا أن أجابه على نحو يشي بروحه الساخرة وغرور الفتى الناشئ: "جعل صاحب الهلال من شروط النقد أن يتقدم الناقد إلى المؤلف فيسبغ عليه قبل النقد ذاكرا حسناته قبل

---

[72] - المرجع السابق، ص 260 .

[73] - طه حسين، الأيام ج3، ص427 .

[74] - المرجع نفسه، ص 427 .

[75] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 265 .

سيئاته .ونحن نخالفه في هذه الخصلة فنقول إن عمل الناقد ينحصر في إظهار الخطأ من غير تملق ولا تزلف ومن غير تحامل ولا تشهير .[76]

وهاجم طه حسين كتاب الرافعي (تاريخ آداب العرب) الذي كان يطمح صاحبه في أن يكون مقررا على طلبة الجامعة، ولقد اصدر الكتاب عام 1911 لهذا الغرض، كما أن الرافعي كان يأمل أن يتولى تدريس مادة الأدب في الجامعة المصرية الأهلية عهد ذاك .لكن طه أطاح آماله، وندد بكتاب الرافعي وذهب إلى أنه لم يفهم منه حرفا واحدا .[77]

والحقيقة أن المقالات ترفع النقاب عن مزاج طه لعهده وهو الشاب في حوالي العشرين من عمره، مزاج قوامه ... عدم التهيب واقتحام المقدسات سواء تمثلت بالأشخاص أو الأفكار... وهي صفات ظلت ملازمة لطه بعدها ...لكن الحياة، شأنها دائما، عملت عملها في الصقل والأناة ...ثم كان للثقافة ...دورها الإيجابي في تهذيب السالب وتغليب الموجب.[78]

وقد تراجع طه حسين عن كثير من نقده المبكر هذا لما فيه من غلو ومبالغة، وخروج عن الاعتدال .وظل فيما بعد يخجل من هذه المقالات التي خطها ذات عام ضد المنفلوطي:" أنا أستحي أن أذكر هذا الموضوع، لأن هذا النقد لم يكن نقدا بالمعنى الصحيح" ." لم أخجل من شيء في كل ما كتبت قدر خجلي من هجومي على المرحوم المنفلوطي، فالذي كتبته عنه كلام فارغ .فقد كان همي أن أعثر بين ما يكتبه المنفلوطي على كلمة خطأ، سواء أكان هذا الخطأ نحويا أم لغويا، وكنت اعتمد في هذا على قاموس واحد وكان هذا خطأ مني.ولذلك فانا أخجل مما كتبته عن المنفلوطي ." "كنت غير موضوعي في نقدي، لأنني ركزت على اصطياد الأخطاء اللغوية له، بدل أن أركز على نقد موضوع الكتاب ."

---

[76] - المرجع السابق، ص 267 .

[77] - المرجع نفسه، ص 287 .

[78] - المرجع نفسه، ص 260 .

كان نقدا معتسفا ظلوما، باعثه الاختلاف السياسي مع المنفلوطي، أكثر مما كان قائما على النزاهة والعلم .وقام الشيخ عبد العزيز جاويش، في رأي طه، بدور المحرض الأكبر.[79] فعليه يقع نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها الفتى، فشغل بها الأدباء والمثقفين حينا، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له.[80]

على أن التبعة كامنة أيضا في مزاج طه، إذ عندما سأله أحد الصحفيين بعدها بزمن طويل عن سر تلك الحملة الشعواء على المنفلوطي، أجابه طه حسين، وقد غدا عميدا للأدب العربي وشهرته طبقت الآفاق: "كنت شابا يريد الشهرة على حساب كاتب كبير معروف" وعندما سأله عن سبب إفراطه في النقد، قاطعه طه قائلا: "تعني طول اللسان ... إن سببه في رأي هو عنف مزاجي، ولعل هذا السبب ولا سبب غيره" .[81]

نماذج من النقد العلمي:

ونلمح في غضون هذا النقد تأثر طه حسين بالمنهج العلمي في دراسة الأدب، يظهر ذلك في بعض المصطلحات والألفاظ، كقوله في المنفلوطي: " وأريد أن أبدأ بنقد آرائه في فروع من الكتاب كله نقدا علميا محضا ."[82] وقوله: " آخذ في نقد الكتاب وما اشتمل عليه من آراء صاحبه فصلا فصلا، فقد طالت المقدمات التي مللتها وملها القراء، غير أن في ذلك معذرة، هي أني لا أنقد الكتاب نقدا علميا أو أذبيا فحسب، وإنما أنقده كذلك في الأخلاق

---

[79] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 260 – 261 .

[80] - طه حسين، الأيام ج3، ص 418 .

[81] - أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، ص 260 - 261 .

[82] - حلمي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1966، ص 465 .

والآداب التي صدر عنها ."[83] ويمثل هذا النقد بداية الاهتمام بضرورة دراسة الأدب ضمن شروطه الاجتماعية .

[83] - المرجع نفسه، ص 466 .

المبحث الثالث: مفهوم النقد عند طه حسين

لعل أبرز صفة تحلى بها طه حسين هي أنه كان ناقدا، وهذا النقد رافقه من البداية، فارضا نفسه بالقوة في الحقل الأدبي[84]، ويعد طه حسين من أولئك الكتاب الذين يمتلكون إحساسا مصيريا .أي إحساسه بأن مصيره ومصير كلمته مرتبط ارتباطا شديدا بمصير أمته وحضارته .هذا الإحساس يتجلى أمامنا واضحا في أول كتاب هام له وهو (ذكرى أبي العلاء) الذي حصل به على درجة الدكتوراه .يقول في مقدمة هذا الكتاب: "أذنت في نشره لأمرين:الأول:أنه يمثل طورا من أطوار حياتي العقلية وأنا رجل شديد الأثرة أحب أن أكون واضحا لمعاصري ولمن يجيئون على أثري من الناس وضوحا تاما في جميع ما اختلف على نفسي من الأطوار .الثاني: أن هذا الكتاب يؤرخ الحركة الأدبية في مصر، فإني لا أعرف قبل اليوم كتابا ظهر على هذا النحو من البحث ... وخصلة أخرى حببت إلي نشر هذا الكتاب: وهي أنه يؤرخ حياة الجامعة المصرية .فهو أول كتاب قدم إليها، وهو أول كتاب أمتحن بين يدي الجمهور وهو أول كتاب نال به صاحبه إجازة علمية ".

هذا كلام شخص لم يتعدّ الخامسة والعشرين من عمره. أدرك كل الإدراك بأن الإختيار بين المنهج القديم وبين المناهج الحديثة في دراسة الأدب العربي ليس مسألة تتعلق بالأدب فحسب ،وإنما هي مسألة أكبر من ذلك.إنها مرتبطة بمصير الثقافة العربية الحديثة والمصرية على وجه الخصوص . وهكذا،ومنذ البداية،يوحد طه حسين بين ذاته وأمته.

والنقد الأدبي عند طه حسين لا يبق مصورا في المجال الأكاديمي الضيّق، معزولا عن حياة الناقد ،وإنما نجده شاخصا في مختلف اهتماماته وأنشطته إنه يعكس موقفه العم تجاه

---

[84] - حامدي الزهرة / ولحسن ناصر بديعة، تجليات عاهة العمى في أسلوب طه حسين، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس، جامعة تلمسان، كلية اللغة والأدب العربي، سنة 1999 – 2000، ص 45 .

الحياة وتجاه الثقافة وتجاه المجتمع [85].ولاشك أن هذا هو السر وراء تلك القوة وتلك الهيمنة التي نحسها في أحكامه وأقواله .فهو- دائما- ينظر إلى التراث في سياق ثقافي وقومي معا.يقول:"نحب لأدبنا القديم أن يظل في هذا العصر الحديث كما كان من قبل.ضرورة من ضرورات الحياة العقلية،وأساسا من أسس الثقافة،وغذاء للعقول والقلوب....نحب أن يظل أدبنا القديم غذاء لعقول الشباب "[86]ومن ثم كانت جهود طه حسين، السعي في تقريب التراث القديم إلى القارئ العام في الوطن العربي،معتمدا الشرح والتحليل والمقارنة وليس فقط الاكتفاء بالنقد التفصيلي الظني للنصوص القديمة .

أما عن مفهوم النقد عند طه حسين،فإنه يبدو جليا واضحا في مقدمته لنقده لقصيدة شوقي النونية التي مطلعها :

قفي يا أخت (يوشع) خبرينا أحاديث قرون الغابرينا

إنه يقتصر على تبيان المحاسن والعيوب في العمل الفني .يقول :"قد لا يسهل نقد هذه القصيدة ،وقد يضطر الناقد إلى أن يلتمس فيها العيب ،يبحث فيه عن مواطن الضعف ،وقد لا يجد شيئا بعد طول التلمس والبحث فيقف من شوقي لا من موقف الناقد بل موقف المداعب " ،وكأن مهمة الناقد هي البحث عن العيوب ومواطن الضعف ،وإذا تعذر ذلك تحول النقد إلى مداعبة .ثم يستطرد قائلا:"إذا أردت أن تلتمس مصدر ما في هذه القصيدة من جودة، لم تتجاوز شيئا واحدا، وهو أن شوقي لم يتكلف في هذه القصيدة لفظا ومعنى وإنما شعر وأحس وجرى قلمه بما أحس وما شعر، وليس هذا بالشيء القيل ولعل هذا هو كل شي" ومن هذا يمكننا أن نستنتج بأن النقد في مفهوم طه حسين هو تتبع جمال اللفظ

---

[85] - أمل رشيد، مذكرة المنطلقات الإستشراقية في الرؤية النقدية عند طه حسين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، كلية اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان، سنة 2008 – 2009 م، ص 83 - 84 .

[86] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

وجمال المعنى، وصدق التعبير .لذلك لا نستغرب – في هذه المقدمه – بعض العبارات كقوله: "لفظ (قط) يخلو من كل جمال شعري" و "كلمتا (مكفنين) لا تعجبني".

كما يذكرنا بمفهوم طه حسين التقليدي لثنائية الشكل والمضمون: "جمال الأدب أين يكون؟ أيكون في ألفاظه أم يكون في معانيه ؟ أم يكون في الألفاظ والمعاني جميعا؟"، وليس فقط في الشعر، بل الأدب عموما " الأدب لا يكون إلا جملا لأن طبيعته تقتضي ذلك، وهو لم يوجد إلا للسمو بالنفس إلى حيث تشهد المشاهد الرفيعة من الجمال "[87] .

لقد كان طه حسين يعتقد بعمق في أهمية الأديب والأدب، ودافع عن هذا المبدأ طول حياته .يقول معرفا الأديب كما كان يراه" الأديب الخليق بهذا الاسم لا يفكر بالناس ولا يحتفل بهم، ولا يقف عندما يريدون وما لا يريدون وإنما يفكر في الأدب وحده "، ولا شك أن هذا الكلام، لا يحاول من خلاله طه حسين أن يجرد الأديب من إنسانيته إنه بشر كباقي الناس، له عواطف و أهواء، وميول وآراء وهو قد يسخط وقد يرضى لكن يجب أن يبقى الأدب عنده ليس وسيلة ولا أداة، وإنما هو الغاية والغرض"[88] .

هذا الإيمان بقيمة الأدب العظمى، وبرسالته السامية، وبأن الأدب يجب أن يبقى – دائما – غاية في ذاته : لم يفرط فيه طه حسين، ودافع عنه حتى آخر يوم في حياته .

---

[87] - أمل رشيد، مذكرة المنطلقات الإستشراقية في الرؤية النقدية عند طه حسين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، ص 84 – 85 .

[88] - المرجع نفسه، ص 85 - 86.

المبحث الرابع: طه حسين بين النقد الأدبي والتاريخ الأدبي

إن دارس الأدب عالم – أو مؤرخ – حين يستكشف لنا النص، ويضبطه، ويحققه ويفسره من الوجهة النحوية واللغوية، وعندما يؤكد لنا أن هذا النص صحيح من هذه الوجهة أو غير صحيح .ولكن هذا الدارس ليس عالما، ولا مؤرخا للأدب، حين يدلنا على مواضع الجمال الفني من النص أو العمل الأدبي .إنه ناقد يعتمد على ذوقه الفردي، وعلى عواطفه الخاصة التي يثيرها العمل.

ومعنى هذا كله أن (النقد الأدبي) و(التاريخ الأدبي) – عند طه حسين – يمثلان مرحلتين متعاقبتين متداخلتين في الوقت نفسه .إن الجانب العلمي الخالص يسبق الجانب الفني الخالص .ولكن هذا الجانب الفني متضمن – مع ذلك – في الجانب العلمي، والعكس صحيح، لذلك يبدو النقد الأدبي – عند طه حسين – وكأنه الجانب الفني من تاريخ الأدب، ويبدو التاريخ الأدبي – غير مرة – وكأنه مرادف للنقد الأدبي .وإذا تجاوز طه حسين التداخل بين الجانبين، ليفهمها باعتبارهما مرحلتين متعاقبتين، أكد أن الجانب العلمي من تاريخ الأدب يعتمد على العقل، بينما يعتمد الجانب الفني – أي النقد الأدبي – على العواطف والشعور[89].

ولكن التداخل بين المرحلتين المتعاقبتين – ومن ثم بين (التاريخ الأدبي) و(النقد الأدبي) – يعود إلى الظهور في مواضع كثيرة، خصوصا عندما يعترف طه حسين أن شخصية الدارس – ومن ثم ذوقه – تتدخل حتى في أشد الجوانب العلمية من تاريخ الأدب .ولذلك

يظل الفارق الأساسي بين (التاريخ الأدبي) و(النقد الأدبي) فارقا تقريبيا، يعتمد على تغليب الموضوعية والفهم فيما يسميه طه حسين (الجانب الفني) .ويبدو أن هذا التمييز التقريبي هو

---

[89] - ينظر: جابر عصفور، المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ص 297 – 298 .

الذي سمح لطه حسين بالتعميم .وجعله يضم – في صيغة المجاورة – (التاريخ الأدبي) إلى (النقد الأدبي)، في منطقة (الأدب الوصفي) التي تتميز – بدورها – عن (الأدب الإنشائي)، لما فيها من مزاج حسن بين العلم والفن، وما فيها من توازن بين الفهم والذوق، فبذلك – وحده – يتميز (الأدب الوصفي) – في مجمله – عن (الأدب الإنشائي) الذي هو فن خالص، يفسده العلم إن دخل فيه .

ولكن التعميم يسمح لطه حسين – على الأقل – أن يؤكد أن قوام الأدبين – الإنشائي والوصفي – هو " شخصية الأديب، التي يجب أن تظهر في كل ما يصدر عنه صدورا واضحا " .مثلما يؤكد أن " قوام الأدبين أيضا اتصال الأديب بعصره اتصالا يمكن من تمثيل ذوقه الفني إن كان منشئا، وحياته العقلية إن كان ناقدا أو مؤرخا ... وإنما الأديب المنشئ من يقرأ معاصروه أدبه فيرون فيه أنفسهم، وإنما الأديب الناقد من يقرأ معاصروه نقده فلا يشعرون بأن بينهم وبينه بعد ما بينهم وبين القدماء ".[90]

ويؤكد طه حسين أن تاريخ الأدب لا يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها[91]. فيقول: " إن تاريخ الآداب لا يستطيع أن يكون علما منفصلا قائما بنفسه، بينه وبين الحياة الأدبية من البعد مثل مابين التاريخ السياسي والحياة السياسية .فأنا افهم حق الفهم أن الثورة الفرنسية شيء وتاريخ هذه الثورة شيء آخر .وأفهم حق الفهم أن الحركة البروتستينية شيء وتاريخها شيء آخر .ولا أستطيع أن أعد تاريخ الثورة الفرنسية ثورة، ولا تاريخ الحركة البروتستينية حركة بروتستينية، بل أفهم حق الفهم أن يضع تاريخ الثورة ويتقنه أشد الناس بغضا للثورة، ولكن الأمر في تاريخ الأدب ليس على هذا النحو .فأنت توافقني على أنه مستحيل أن يؤرخ الآداب غير الأديب، كما أرخ الثورة غير الثائر، وكما يستطيع الملحدون أن يؤرخوا الديانات .ذلك لأن تاريخ الأدب لا يستطيع أن يعتمد على مناهج

---

[90] - جابر عصفور، المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين، 1983،ص 298 .

[91] - فاروق العمراني، تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، الدار العربية للكتاب، 1988، ص 64 .

البحث العلمي وحدها، وإنما هو مضطر معها إلى الذوق .هو مضطر معها إلى هذه الكلمات الشخصية الفردية التي يجتهد العالم في أن يتحلل منها، فتاريخ الأدب إذن ادب في نفسه من جهة، لأنه يتأثر بما يتأثر بما يتأثر مأثور الكلام من الذوق وهذه المؤثرات الفنية المختلفة، وتاريخ الأدب علم من جهة أخرى، ولكنه لا يستطيع أن يكون علما موضوعيا objectif كما يقول أصحاب العلم .وإنما هو بحث ذاتي subjectif من وجوه كثيرة .هو إذن شيء وسط بين العلم الخالص والأدب الخالص، فيه موضوعية العلم، وفيه ذاتية الأدب"[92].

وما يشير إليه طه حسين عن تدخل "الشخصية الفردية" في تاريخ الأدب، أو نقده، يمكن أن يقال بنفس الدرجة عن التاريخ السياسي – أو غيره – المستقل عن الحياة السياسية أو غيرها، ذلك لأن الشخصية الفردية – لو أحسنا الظن في فهمها – سوى الوقف الذي ينطوي عليه المنهج من ناحية، والتكيف الذاتي لهذا المنهج بين يدي المؤرخ أو الناقد من ناحية ثانية .كما أن هذه " الشخصية: - لو أسأنا الظن في فهمها – ليست ناحية ثانية .كما أن هذه " الشخصية: - لو أسأنا الظن في فهمها – ليست سوى التدخل المقحم الذي يعكر على الموضوعية، أو ينفيها، في التاريخ الأدبي والنقد الأدبي على السواء .وسواء أحسنا الظن أو لم نحسنه فإن موضوع التاريخ لا يفترق – في التحليل التجريدي الأخير – عن الأدب كموضوع للتاريخ والنقد، من حيث إنه – أي موضوع – معطى مستقل عن المنهج – التاريخي أو النقدي – الذي يتعامل به المؤرخ أو الناقد .ولذلك لا يتميز استقلال "التاريخ" بموضوعه ومنهجه عن استقلال "النقد الأدبي" بموضوعه ومنهجه .وبقدر ما يصح القول إن "ذات المؤرخ" تشكل إلى حد ما، وببعض الاحتراز، على مستوى المنهج، جانبا من موضوع بحثها، يصح القول نفسه على "ذات" الناقد الأدبي من حيث علاقته بموضوع بحثه .ولكن بشرط أن لا تتطابق هذه "الذات" مع تلك "الذاتية" التي يتحدث عنها طه حسين،

---

[92] - جابر عصفور، المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين، ص 299 .

ودون أن يتحول النقد إلى أدب "بأدق معاني الكلمة"، أو يتحول الناقد إلى أديب "بأصح معاني الكلمة"، بل يظل هذا غير ذاك، وتقصر الصفة على ماهي خاصة به، ولا يخلط – قط – بين موضوع العلم ومنهجه [93].

لقد نشأ التسليم بعدم استقلال "التاريخ الأدبي" – ومن ثم "النقد الأدبي" – في ذهن طه حسين بسبب عدم تمييزه بين موضوع العلم ومنهجه .لقد – من ناحية – بين الموضوع والمنهج، فجعل النقد أدبا، وجعل النقاد أدباء بالضرورة .وفهم الموضوعية – من ثانية – بمعناها التجريبي المستخدم في العلوم الطبيعية، فنفاها من النقد الأدبي، ليثبت الذاتية المقترنة بالذوق بقدر الحاجة على الذاتية والذوق قاده الخلط بين الكتبة الأدبية –كموضوع – والكتبة لنقدية –كمنهج – إلى أن يضفي على الثانية نفس القيمة الجمالية التي أثبتها للأولى، فاتحدت الكتابتان باعتبارهما أدبا، وأصبح انعكاس الشخصية قرين الذوق واللذة، من حيث هي خصائص نوعية مشتركة بين الأدب "الإنشائي" و "الوصفي"، وهكذا انتهى الأمر بطه حسين إلى أن يصف الكتابة النقدية لناقد مثل (سانت بييف) بقوله: " أنت تستطيع أن تقرأ هذه الآثار القيمة التي تركها (سانت بييف)، فسيكون موقفك منها موقفك من الآيات الفتية القيمة، وستجد في قراءتها إذن تعدل اللذة التي تجدها عندما تقرأ آثار موسيه أو لامارتين أو فيني أو غيرهم، من الذين كتب عنهم (سانت بييف)، ولن تجد هذه اللذة العلمية التي لا تخلو من جفاء وحموضة عندما تقرأ هذه الآثار .ذلك لأن (سانت بييف) لم يستطع أن يكون عالما ... لم يستطع أن يمحو شخصيته ولا أن يخفف من تأثيرها.فأنت تراه فيما يكتب، وأنت تسمعه، وأنت تتحدث إليه، وأنت تستكشف عواطفه وميوله وأهوائه، وتستكشفها في غير مشقة ولا عناء...أفتظن أنك تستطيع أن تظفر من شخصية (نيوتن) و(لامارك) و(دروين) و(باستور) في آثارهم العلمية الخالصة بمثل ما تظفر به من شخصية

[93] - جابر عصفور، المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين، ص 300 - 301 .

(سانت بييف) في آثاره الأدبية؟كلا لأن هؤلاء كانوا علماء، ولأن هذا كان أديبا، والعلم شيء والأدب شيء آخر" [94].

طه حسين لم يستقر على نظرية واحدة من الفكر العربي أو الفرنسي، كما لم يستورد فكرة جاهزة ليكون عبدا لها رغم تأثره بأفكار مختلفة ومتناقضة أحيانا.فأخذ من التناقضات أفكارا، ومن التيارات الفكرية أراء، ومن المنهاج أساليب ليصوغ له منهجا خاصا به وفكرا ملائما لشخصيته المترددة .إنه وفق بين هذه الاتجاهات المختلفة .ومارس أسلوب العبث في إطار منهج وسطي انتقائي توفيقي بين المتغيرات والأفكار والآراء والتناقضات .

وقد اتهم طه حسين من أطراف عديدة متباينة في اتجاهاتها الفكرية بأنه استشراقي في تارة ومعترف تارة أخرى، لأنه يعني خطابة الثقافي عامة، وخطابة النقدي على نحو خاص، لا ارتكازا على ذاتيته الثقافية والحضارية القومية وإنما على ذاتية الآخر التي جعل في نفسه جزءا منها، وعاين الثقافتين العربية والشعر العربي من خلالها، فضلا عن أن خطابة منهجه النقدي محاصر هو الآخر بهذه التصورات .

وإذا كان طه حسين لا يتمسك بنظرية أدبية محددة، وقد يعلن في ثورة في ثورات انطباعاته، التشكيك في جدوى أية نظرية، فإنه يحلو له أحيانا أن يدعم حتى انطباعاته بمسوغات مقنعة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ليصل إلى شيء أقرب إلى القص الخيالي وتتصاعد درجة القص الخيالي بتصاعد حدة الذاتية وانطلاقها فيما يشبه النجوى التي تكشف عن العام الناقد الخاص وتوتره أكثر مما تشف عن عالم الأعمال الأدبية المتميزة .ثم أن الطموح النظري ومستوى الكتابة التي أراد لها طه حسين أن تركني إلى منهج نقدي، لم ترق إلى قطع العلاقة بينه وبين انتفاعاته الذاتية وذوقه المحض .فكان الطموح النظري أكبر بكثير مما سيفصح عنه المنهج في التطبيق .

---

[94] - جابر عصفور، المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين، ص 300 - 301 .

الفصل الثاني:الرؤية النقدية عند طه حسين من منظور غربي

المبحث الأول: منهج الشك الديكارتي عند طه حسين.

المبحث الثاني: طه حسين والشعر الجاهلي.

المبحث الثالث: مخالفات طه حسين للإسلام.

المبحث الرابع: مخالفات طه حسين في القضايا السياسية و الإقتصادية.

المبحث الأول: منهج الشك الديكارتي عند طه حسين

عرف طه حسين طلائع المستشرقين في الجامعة المصرية القديمة، ثم ألقى بنفسه في أحضانهم عندما سافر إلى فرنسا، وقد أعجب بطريقة المستشرقين وتأثر بها، وخضع لها بل ودافع عنها بعد ذلك دفاعا واسعا في كل كتاباته .[95]

وقد سعى المستشرقون إلى إلحاق طه حسين بكل مؤتمراتهم، فرحين به لأنه كان يأخذ خططهم، فينفذها ويقدم التقارير ما يرضيهم ويقنعهم .[96] ويدافع عن الغرب ضد قومه العرب والمسلمين وخاصة في المغرب وسوريا .[97]

يقول طه حسين: " أنا إذن عالم حين أستكشف لك النص وأضبطه وأحققه وأفسره من الوجهة النحوية واللغوية أزعم لك أن هذا النص صحيح من هذه الوجهة أو غير صحيح .ولكني لست عالما حين أدلك على مواضع الجمال الفني من هذا النص .وإذن فليس عليك أن تقبل ما أقوله وليس لك أيضا أن تنكره .وإنما لك أن تنظر فيه .فإذا وافق هواك فذاك، وإن لم يوافق هواك فلك ذوق الخاص "[98].

ولقد خلق طه حسين من شكه شيئا جديدا، لم يعرفه القدماء، ولم يقتحم السبيل إليه العرب المحدثون من قبله، قم أنكره بعد كثير من المحدثين إنكارا خصبا، وفي معرض حديثه عن النقد القديم والجديد يستعرض مذهب الشك الذي تبناه، ثم يذكر الأسباب التي دعت لنحل الشعر، لينير دربه في تعامله مع رأيه النقدي هذا وكأنه أدرك الغضب والروبعة التي

---

[95] - ينظر: أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، دار الاعتصام، ص 33 .

[96] - ينظر: المرجع نفسه، ص 38 .

[97] - ينظر: المرجع نفسه، ص 49 .

[98] - أمل رشيد، المنطلقات الإستشراقية في الرؤية النقدية عند طه حسين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، ص 96 .

سيثيرها رأيه هذا في الأوساط الفكرية والسياسية والديني، ويبدي استعداده لتحمل كل تبعات رأيه، حيث يقول بأنه لا يزعم أنه من العلماء ولا يحب أن يتعرض للأذى، بل يريد أن يتذوق لذات العيش في دعة ورضا، ولكنه مع ذلك يحب التفكير والبحث وإعلان ما انتهى إليه الناس بعد البحث والتفكير، دون الاكتراث بسخط الناس أو رضاهم .

لهذا سوف أقوم بالتطرق إلى منهج الشك الديكارتي عند طه حسين وبعض جوانب التشكيك من مخالفات مارسها ضد الإسلام والشعراء والسياسة ...الخ

وفي اللحظة التي شعر فيها طه حسين بأنه استدرج القارئ وأقنعه بمنهجيته، يتدخل المصدر الديكارتي الذي سيتمم العملية " أريد أن أصنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث "[99] .

ففي البداية يعلن طه حسين عن هدفه وهو " أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث "، لكنه سرعان ما يستدرك مغيرا كلمة البحث بكلمة الشك التي يربطها بأنصار الجديد .لأنهم أهل الشك الذي يبعث على القلق والاضطراب ولا يؤمنون بما قاله القدماء، وهكذا تتعاقب السياقات المتضادة، مذهب أنصار القديم تارة ومذهب أنصار الجديد تارة أخرى، بطريقة يتم فيها التركيز على قيمة الشك، انطلاقا من قاعدة "الشك هو الطريق الموصل إلى اليقين" .[100]

أ – أسس منهج ديكارت:

إن القواعد التي يقوم عليها المنهج الديكارتي، تؤكد ان طه حسين حينما أقبل علة نقد المناهج التعليمية الجامدة، التي انعكست مباشرة على إدراك مفاهيم الأدب والوصول إلى

---

[99] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، القاهرة، ط3، 1933، ص69 .

[100] - ينظر:أمل رشيد، مذكرة المنطلقات الإستشراقية في الرؤية النقدية عند طه حسين، ص 131 – 132 .

موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما، ورغم سخط أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر، فقد كان هذا المنهج من أخصب المناهج وأقواها، وأنه جدد العلم والفلسفة تجديدا فهو بذلك الطابع المميز لهذا العصر .

ويرى بأن أنصار القديم أصحاب المنهج الظني الاعتقادي يصعب عليهم إدراك أسرار هذا المنهج، بحكم أنهم خاضعون وراسفون في أغلال القديم، لذا فهو يطلب منهم أن يبرؤوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء، حين يقرءوا هذه الفصول[105] .

وللإشارة فإن منهج ديكارت في يد طه حسين يقوم على مبدأ الهدم والبناء أو التفكيك والتركيب وذلك:

- ✓ بالشك في صحة الشعر الجاهلي ووصفه بالمنتحل ووصف الرواة بأنهم تجنوا على الحقيقة التاريخية .
- ✓ بإعادة النظر في الرؤية القديمة وذلك بإعادة الحيثيات التاريخية التي تبرهن على هدم صحة هذا الأمر .
- ✓ بخلخلة البنية الفكرية لدى الدارسين، بهدف تحطيمها وبناء قارئ وباحث مستنير .

يعتقد البيومي أن ديكارت قد أخذ المبادئ التي بنى عليها مذهبه الغزالي[106]، حسب الرافعي وحسب الكاتب الفرنسي شارل سومان الذي يرى بأن السرقة عن الغزالي واضحة إلى درجة تكاد تكون العبارات واحدة والغزالي سبق ديكارت بخمسة قرون ونصف[107] .

---

[105] - ينظر: طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 70 .

[106] - ينظر: محمد رجب البيومي، موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ص 72 .

[107] - المرجع السابق، ص 72 .

يرى الكثير من مؤرخي الأدب ونقاده بأن الرؤية المنهجية التي اختارها طه حسين أو التي انطلق منها وانحاز لها، ما تزال تشكل أهم إسهام قدمه الفكر العربي الحديث في مواجهة المجتمع التقليدي، فلن يبلغ المجتمع العربي أهدافه في التحديث والمعاصرة، إلا إذا أنجز العقل العربي والمجتمع العربي تحقيق تلك الرؤية المنهجية في قلب الحياة العربية، بدءا بتحديث المجتمع الذي لا يتحقق إلا بتحديث وساطات الحياة [108] .

تصريح طه حسين أنه سيطبق منهج ديكارت دليل على أنه تأثر بديكارت، لكن ليس بهذه التصريحات أي قيمة، المهم أن يثبت أنه فعلا طبق المنهج الديكارتي، وقد أثبت ذلك، صحيح أن روح المنهج الديكارتي التي تتجسد في الشك تظهره في نقده للشعر الجاهلي، كما استطاع أن يطبق نظرية ديكارت شكلا، بقواعدها الأربع ولكن النتيجة التي توصل إليها من أن الشعر الجاهلي منحول ليست حقيقة علمية مطلقة .فكيف نفسر إتباع طه حسين لمنهج عقلي وعدم توصله للحقيقة العلمية، نعتقد أن الدراسة كانت مشوهة من طرف الباحث نفسه منذ البداية لأنه قصر في البحث في حقيقة الأدب الجاهلي، ولم يرد إعادة بناء تاريخ هذا الأدب بطريقة الإخوة كروازيه في تعاملها مع تاريخ الأدب اليوناني، منطلقا فقط من جملة افتراضات ومن شك لازمه منذ سنين طويلة كما يقول هو عن نفسه [109] .

---

[108] - MAFTAH TAHAR, TAHA HUSAYN SA CRITIQUE LITTERRAIRE ET SES SOURCE, FRANCAISE MAISON ARABE du livre ,p 94 – 96 ;

[109] - المرجع نفسه، الصفحة نفسه.

المبحث الثاني: طه حسين والشعر الجاهلي

تتجسد هشاشة مشروع طه حسين، في أن المثقفين والنقاد هم من أمسكوا بنقاط ضعف مشروعه في " انتحال الشعر الجاهلي " والطعن في القرآن الكريم، وكشفوا ثغراته وتفاهته من خلال قيامه بتزوير بعض الشواهد القديمة التي اعتمدها كأدلة تدعم وجهة نظره وهذا يخالف أسس البحث العلمي التي كان الدكتور نفسه ينادي بها .ولهذا قبل التطرق إلى الشعر الجاهلي عند طه حسين لابد من الوقوف على ظاهرة النحل أو الانتحال.

1 – مفهوم الانتحال في المعاجم العربية:

جاء في لسان العرب : " النحل (بالضم): إعطاؤك الإنسان شيئا بلا استعاضة، وعنى به بعضهم جميع أنواع العطاء .والنِّحلة: الدعوى، وانتحل فلان شعر فلان أو قول فلان: إذا ادعى أنه قائله، وتنحله ادعاه وهو لغيره، ونحل الشاعر قصيدة: إذا نشبت إليه وهي من قيل غيره "[110].

فمعنى النحل في الشعر هنا " أن يدعي شخص كذبا أن هذا الشعر له، وهو ليس له .وقد يأتي النحل بمعنى التمليك، فيقال: انتحل فلان كذا وكذا معناه ألزمه نفسه وجعله كالملك له، وعندما يقول الشاعر قصيدة ينسبها إلى غيره، كأنه ملكها له بلا عِوَض، " وفي حديث قتادة بن النعمان قال: كان بشير بن أبيرق يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وينحله بعض العرب، أي ينسبه إليهم .[111]

وجاء في لسان العرب أيضا: " ...ونحلته القول أنحله نحلا، بالفتح: إذا أضفت إليه قولا قاله غيره وادعيته عليه .وفلان ينتحل مذهب كذا وقبيلة كذا إذا انتسب إليه .ويقال نحل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قيل غيره، فمفهوم النحل عند ابن منظور: ادعاء

---

[110] - ابن منظور، لسان العرب، ج11،دار صادر، بيروت، ص 650 .

[111] - المصدر نفسه، ص 650 .

وانتساب شعر لغير قائله أي لغير صاحبه، وإضافة قول على قول وهو يدل أيضا على الانتساب إلى قبيلة وهو ليس منها "[112] .

أما ابن فارس في مقاييسه فمادة نحل عنده :"كلمات ثلاث: الأولى تدل على دقة وهزال، والأخرى تدل على عطاء، والثالثة على ادعاء "، وما يهمنا هو المعنى الثالث حيث يقول: " انتحل كذا، إذا تعاطاه وادعاه، وقال قوم: انتحله إذا ادعاه محقا، وتنحله إذا ادعاه مبطلا وليس هذا عندنا بشيء، ومعنى انتحل وتنحل عندنا سواء "[113].

يقول الفيروز أبادي في قاموسه: في مادة النحل" ... انتحله وتنحله ادعاه لنفسه وهو لغيره ونحله القول كمنعه نسبه إليه ... والنِّحلة بالكسر الدعوى فهي بالنسبة له كذلك ادعاء للنفس ما ليس لها "[114] .

2 – الانتحال عند طه حسين:

لقد عرف العرب موضوع النحل والانتحال في الأدب العربي منذ القديم، وقد كان محل جدل كبير بين الأجيال الأدبية، من خلال تعاملها مع النصوص القديمة، وخاصة الجاهلية منها .ويعتبر طه حسين من بين أدباء العصر الحديث الذين تعرضوا بالدراسة لهذه الظاهرة، وفي تناوله للشعر الجاهلي توقف طه حسين مليا يستقريء الإبداعات الجاهلية، يسبر أغوارها، ويتساءل مدى مصداقيتها، وقد أثار بشكه هذا حفيظة الكثيرين، وفتح عيون الكثيرين على ضرورة مساءلة المسلمات .

---

[112] - المصدر السابق، ص 651 .

[113]- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية إسماعيل نحفي، إيران ج5، ص 402 – 403 .

[114] - الفيروز أبادي الشيرازي، القاموس المحيط، مكتبة النوري، دمشق، د.ت، ج4، ص 55 .

فقد استقى أكثر مادته من العرب القدماء وسلك بها سبيل (مرجليوث) في الاستنباط والاستنتاج،والتوسع في دلالات الروايات والأخبار وتعميم الحكم الفردي الخاص واتخاذه قاعدة عامة، ثم صاغ تلك المادة وهذه الطريقة بإطار من أسلوبه الفني وبيانه الأخاذ حتى انتهى إليها من " أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين "و" إن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء، ولا يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن "[115] .

ثم يكاد يعتدل بعض الشيء فيقسم الشعر الجاهلي إلى ثلاثة أضرب ويقول:" إننا نرفض شعر اليمن في الجاهلية، ونكاد نرفض شعر ربيعة أيضا ... وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضري الجاهلي، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط "[116] .

3 – دوافع الشك في الشعر الجاهلي عند طه حسين:

شك طه حسين في الشعر الجاهلي لأنه لم يترجم الحياة الجاهلية .ويرى أن أصدق مرجع للإطلاع على الشعر الجاهلي هو القرآن وليس الشعر وفيها يؤكد" فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية، فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة ... وإنما أسلك إليها طريقا أخرى، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه "[117].

---

[115] - ينظر: د. ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي قيمتها التاريخية، دار المعارف، ط5، ص 380 .

[116] - المرجع نفسه، ص 380 .

يضيف أنه من الناحية السياسية فالقرآن عامة وسورة الروم خاصة يوضح العلاقات التي كانت بين الأمم .ولا نستطيع أن نجد ذلك في الشعر .

ويستشهد طه حسين على صحة نظريته بالعامل الاقتصادي فلم يصور الشعر حياتهم المالية، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم، العرب طائفتين:

طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة، وطائفة الفقراء المعدمين، وليس فيي الشعر ما يصور ذلك كما يقول، إن فيه أن العرب جميعا أجواد كرام على حين يلح القرآن الكريم في ذم البخل والبخلاء .

وكذلك جادل القرآن الكريم اليهود والنصارى والصابئة والمجوس، كما هاجم الوثنيين

والوثنية وأطلعنا على دقائق معتقدهم .وبين انحرافها ولكن الشعر الجاهلي لم يعرض من

الحياة الدينية شيئا ذا بال. وقياس الشعر الجاهلي في هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض، لأن القرآن كتاب ديني يريد أن يجمع العرب على الإسلام، فطبيعي أن يتعرض لدياناتهم ويناقشها، وبين ما فيها من ظلال، بخلاف الشعر، فإن الشاعر لم يدع لدين جديد، ومع ذلك فإن كتاب الأصنام لابن كلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثيقة تصويرا دقيقا .

كانت دلائل طه حسين مبنية على مجموعة من القضايا التي يبنى عليها المجتمع كالاقتصاد والسياسة والحياة الدينية .ولأنه لم تك قصائد الشعر الجاهلي قد وفتها حقتها من الطرح فإن أبياتا متفرقة على مستوى الشعر الجاهلي صورت الحياة بأنواعها وما

---

[117] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 70 .

موسوعة ابن الكلبي التي تكاد تتجشأ أبياتا شعرية والتي يدور موضوعها حول الحياة الدينية عند عرب الجاهلية .إلا نموذجا ينفي ما ذهب إليه الدكتور في نظريته[118] .

4– أسباب نحل الشعر في زعم طه حسين:

أ – السياسة (العصبية): يشير طه حسين في بداية هذه القضية إلى أن العرب لا يختلفون عن الأمم الأخرى من حيث سيرورة الحياة، وأنهم خضعوا لنفس الظروف والمؤثرات التي دعت إلى نحل الشعر والأخبار، ويرى بأن عاملي السياسة والدين كان لهما الأثر الكبير في توجيه الأدب عامة والشعر خاصة، ولبيان مدى تغلغلهما في حياة المسلمين يقول: " والحق أن لا سبيل إلى فهم التاريخ الإسلامي إلا إذا توضحت مسألة الدين والسياسة توضيحا كافيا، فقد أرادت الظروف ألا يستطيع العرب منذ ظهور الإسلام أن يخلصوا من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم في القرنين الأول والثاني "[119].

ويرجع طه حسين النحل إلى عامل السياسة كون العرب أهل عصبية، وأن الإسلام لم يمح هذه العصبية بصفة جذرية لأنها استقرت في أعماق الناس ولم يكن الزمن الطبيعي ولا الزمن الحضاري بكاف لنزع هذه الصفة من القلوب، حتى وإن اختفت في صدر الإسلام إلا أنها ظلت تطل من حين إلى آخر، حيث عادت للظهور في العهد الأموي، فهو يرى بأن العرب " أهل عصبية وأصحاب مطامع ومنافع،فهم مضطرون إلى أن يراعوا هذه العصبية ويلائموا بينها وبين منافعهم ومطامعهم ودينهم "[120]. وأول ما يحسن أن نلاحظه،هو هذا الجهاد العنيف الذي اتصل بين النبي وأصحابه من ناحية وبين قريش وأوليائها من ناحية أخرى ...[121].

---

[118] - محمد تاج، المنظور الإستشراقي في الأدب العربي، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، 2007، ص 181 – 182.

[119] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 177 .

[120] - المصدر السابق، ص 118 .

[121] - المصدر نفسه، ص 118 .

لقد بنى المؤلف ما كتبه تحت هذا العنوان على الهجاء الذي دار بين قريش والأنصار لعهد النبوة، بين قريش والأنصار لعهد معاوية بن أبي سفيان، ثم على تأثير العصبية في الحياة السياسية، وقد خاض في هذا الموضوع كتاب لا يخفى على المؤلف مكانه وهو (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجي زيدان، فقال: " وقد راج الهجاء السياسي في العصر الأموي لاحتياج ولاة الأمور إليه بسبب الانقسام الذي قام بين الأحزاب المختلفة، ... وقد بدأت المهاجاة في الإسلام بين شعراء النبي وأعدائه القريشيين ثم صارت بين قريش واليمن وكان لكل من الجانبين شعراء يردون عنهم الهجاء بأشد منه، ... وكان المسلمون يحفظون ما يقوله هؤلاء من المهاجاة وينشدونه، كل طائفة تنتصر لأصحابها

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب فنهى عنه وقال:" في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن ".ولما أفضى الأمر إلى معاوية اقتضت سياسته ومصلحته أن يجدد تلك الضغائن"[122]، فجعل يغري الشعراء على الطعن بالأنصار لأنهم أصحاب علي بن أبي طالب خصمه.وكان يفعل ذلك تحت طيّ الخفاء، ومن الذين أغراهم على ذلك الطعن على الأنصار خصوصا لأنه نصراني، واستعان به معاوية على المسلمين فغضب متكلم الأنصار وشاعرهم وهو يومئذ النعمان بن بشير ودخل علة معاوية وأنشده قصيدة في الدفاع عن الأنصار مطلعها:

معاويَ إلا تعطنا الحق تعترف لحيَ الأزد مشدودا عليها العمائم

[122] - ينظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، دار الهلال، ص 236 – 237 .

ثم تخلص إلى الفخر بأعمال الأنصار وأنسابهم وختم القصيدة بالطعن على خلافة معاوية وقال " وتحولت المهاجاة بين الأنصار والمهاجرين إلى المشاتمة بين بني هاشم وبني أمية وانتشر ذلك في المملكة الإسلامية "[123].

وقد خلص طه حسين إلى نتيجة مفادها أن هذه العصبية لم تقتصر على أهل مكة والمدينة، ولكنها تجاوزت إلى كافة العرب بحكم الفتوحات التي عاشوها ويورد نماذج عن تعصب قبائل أخرى بل تعصب بعض القبائل بنفسها، كما هو الشأن بالنسبة لقبيلتي مضر وربيعة .

ب – الدين ونحل الشعر: يعرض الدكتور أسبابا ودواعي جعلت من العرب المسلمين ينحلون شعرهم عبر مختلف الأطوار الأموي والعباسي والراشدي، وكان يقصد بهذا النحل إما بإثبات صحة النبوة وصدق النبي صلى الله عليه وسلم، وما يتصل بذلك من تعظيم أسرة النبي ونسبه في قريش، وإماما يمهد للبعثة من أخبار وأساطير موجهة إلى العامة لإقناعهم بأن كهان العرب وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش .

وكذلك بدافع إثبات صحة النبوة وإقرارها في نفوس العامة، صدق النبي صلى الله عليه وسلم بل يعرض علينا نوع آخر من الشعر المنحول لم يستند إلى الجاهلين العرب، وإنما تعداه إلى الجاهليين من عرب الجن حيث يقول :"وإنما كان بإزاء هذه الأمّة الإنسانية أمة أخرى من الجن، كانت تحيا حياة الأمة الإنسانية وتخضع لما تخضع له من مؤثرات"[124].

---

[123] - ينظر: محمد الخضر حسنين، نقض كتاب الشعر الجاهلي، المكتبة الأزهرية للتراث، بالقاهرة، ص 138 – 139.

[124] - ينظر: طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 135 .

ويؤكد الدكتور طه حسين أن"بطون قريش كانت تشجع شعرائها على نحل الشعر، إرضاءا لأرستقراطيتها القريشية، إذ أن البطون القريشية على اختلافها تنحل الأخبار والأشعار وتخزن القصاص وغير القصاص ينحلها "[125].

ويضرب لنا مثلا عن أسرة مخزوم من قريش قوله:" مثلا صادقا وقويا لحرص قريش على نحل الشعر "[126]، للاستشهاد على القرآن ومعانيه .

ج – القصص ونحل الشعر: كان للقصاص دور هام في صناعة ثقافة المجتمع يلتف حوله الناس ليأخذوا عنخ تجاربه وتجارب غيره التي استوعبها سواء أكانت صافية أو ممزوجة بالخيالات التي تصنع وهج الأحداث، وتساهم في التوسع التاريخي للفعل .

والمؤكد حسب طه حسين أن منزلة القصص عند العرب لا تقر أهمية عن الشعر، وتاريخ الأدب كثيرا ما يحمل في طياته بل إحدى تجلياته تكون عبر أدبية القصص وتقنياته المتداولة والتي كان الخيال من أهم عناصرها.والقصص موجود عند العرب منذ العصر الجاهلي إلى اليوم، قد ترك آثارا لا تقل جمالا وروعة وحسن موقع في النفس عن الإلياذة والأوديسة، مع الفروق القائمة بينهما من الناحية التقنية والخصوصية الفنية والبيئية، ومع فروق العناية وعمق الالتفات .حيث كانت عناية الرومان بالأوديسة وعناية اليونان بالإلياذة وعناية المسلمين بالقرآن[127] .وربما من هنا كانت قلة الالتفات إلى القصص الأدبي والاهتمام به كجنس ونوع من أنواع القول يختلف عن الشعر ولكن كنوع له مميزاته وتأثيراته الفنية التي ما

---

[125] - المصدر نفسه، ص136 .

[126] - المصدر نفسه، ص 133 .

[127] - ينظر: طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 153 .

كان ينبغي أن تبدأ وتنتهي عند عينة معينة، لأن المسلمين كانوا " مشغولين بالقرآن وعلومه عن قصصهم هذا "[128].

هذه الحالة من الأدب القصصي تلتحق بتلك الدراسات التي أنجزها المسلمون في القرون الأولى للإسلام، حيث أن الأدب العربي لم يدرس لذاته –كم يشير طه حسين – " وإنما درس من حيث هو وسيلة إلى تفسير القرآن وتأويله واستنباط الأحكام منه، ومن الحديث "[129] حيث لم يكن القصص من الأهمية بمكان، وقد لا يليق بالمجدين من المسلمين لما يرون فيه من خيال، وما يمثله من أهواء وشهوات .ولذلك فإن القصاصين العرب سلكوا في نظرنا مسلكين:

- ✓ مسلك رواة الأخبار: " فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات، ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث ورواية السيرة والمغازي والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا إلا حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا "[130].
- ✓ مسلك السياسيين: حيث ألزموا من قبل الحكام حين أدرك هؤلاء أهمية القصص في تثبيت الحكم مثلما كان الأمر مع الشعر " وليس من شك في أن العناية بدرس هذا الفن ستنتهي إلى مثل ما انتهت إليه العناية بدرس الشعر من أن الأحزاب السياسية على اختلافها كانت تصطنع القصاص ينشرون لها الدعوة في طبقات الشعب على اختلافها، كما كانت تصطنع الشعراء يناضلون عنها ويذودون عن آرائها وزعمائها "[131] ويستشهد طه حسين في هذا المقام بما كان في سيرة ابن إسحاق من أنه كان هاشمي النزعة والهوى وأنه لقي في ذلك اهتمام الأمويين وأنه حضي بمكانه عند العباسيين أيام حكمهم .

---

[128] - المصدر نفسه، ص 153 .

[129] - المصدر نفسه، ص 153 .

[130] - المصدر نفسه، ص 154 .

[131] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

وبالإضافة إلى تأثر القصص بالسياسة والدين فقد تأثر أيضا بطبيعة وروح الشعب الذي كان يتوجه إليه لذلك انتشرت الأساطير وغرائب الأمور وربما المعجزات أيضا ولقد

قام القصص بتأويلات وإضافات وتوضيحات الغامض من القصص ليؤثر في جمهور المتلقين مع الإشارة إلى أن هذا القصص له مصادر مختلفة هي: مصدر عربي وهو القرآن، مصدر يهودي نصراني، مصدر فارسي ومصدر مختلط وهو الذي يمثل عقلية الخليط البشري من الأمم التي دخلت الإسلام والذين ابتعدوا عن السياسة "كل هذه المصادر كانت تمد القصاص، فكنت ترى في قصصهم ألوانا من القول وفنونا من الحديث قد لا تعجب العالم المحقق لاضطرابها وظهور سلطان الخيال عليها "[132] .

د – الشعوبية ونحل الشعر: يرى طه حسين بأن الشعوبية كان لها دور قوي في افتعال الشعر ونحله حين فتح المجال لهؤلاء الشعوبيين من الجيل الثاني من الموالي الذين اندمجوا في الأوساط العربية وتعلموا لغتهم .ويتحدث عن الخصومة التي كانت بين العرب والموالي في الإسلام فيقول:" أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلو أخبارا وأشعارا وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين .ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه ..."ويقول :"كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم .وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم " [133] .

ثم يعيد ما أشار إليه عند حديثه عن الدين، فيقول: " ونوع آخر من النحل دعت إليه الشعوبية، تجده بنوع خاص في كتاب (الحيوان) للجاحظ، وما يشبهه من كتب العلم التي ينحوا بها أصحابها نحو الأدب .ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم

---

[132] - ينظر:المصدر السابق، ص 155 .

[133] - ينظر: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، ط5، 393 – 394 .

إلى أن يزعموا أن الأدب العربي القديم لا يخلوا أو لا يكاد يخلوا من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثة، فإذا عرضوا لشيء مما في هذه العلوم الأجنبية فلا بد من أن يثبتوا أن العرب قد عرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفونه ويلمون به "[134].

هـ – الرواة ونحل الشعر: يرى طه حسين بأن الرواة على اختلافهم قد عبثوا بالأدب أيما عبث، لأنهم لم يكونوا على استقامة في الأخلاق، ومن ثم فتحت لهم قسوتهم ومجونهم واستهتارهم أن يفعلوا بشعر الأولين مايشاؤون .ويخص بالذكر خلف الأحمر زعيم أهل البصرة في الرواية والحفظ، وحماد الرواية زعيم الكوفة في الرواية والحفظ أيضا، "كان كلا الرجلين مسرفا على نفسه، ليس له حظ من دين ولا خلق ولا احتشام ولا وقار، وكان كلا الرجلين سكيرا فاسقا مستهترا بالخمر والفسق، وكان كلا الرجلين صاحب شك ودعابة ومجون "[135].

إذا كيف يأتي الصدق وتأتي صحة الرواية من أناس هذه هي سلوكاتهم وأخلاقهم، وكيف لا يأتي الشك في كل ما يروون، ومن ثم حسب طه حسين تولد النحل والانتحال، ويرتكز صاحب (في الأدب الجاهلي) على موقف كل من أهل الكوفة والبصرة الذين يجمعون " على تجريح الرجلين في دينهما وخلقهما ومروءتهما، وهم مجمعون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعر ويحسنان روايته ليس غير، وإنما كانا شاعرين مجيدين يصلان من التقليد والمهارة فيه على حين لا يستطيع أحد أن يميز بينما يرويان وما ينتحلان "[136].

ويعمم طه حسين ظاهرة النحل على رواة آخرين لم تفسدهم أخلاقهم كأبي عمرو بن العلاء واللاحقي والأصمعي الذين كانوا يعترفون بما وضعوه من شعر لحساب شعراء أو لحسابهم أحيانا من أجل الإفلات من مواقف معينة .

---

[134] - ينظر: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، ط5، 393 – 394 .

[135] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 177 .

[136] - المصدر نفسه، ص 177 .

وقد قسم الدكتور طه حسين الرواة حسب رأيه إلى قسمين فيقول: " هم بين اثنتين: إما أن يكونوا من العرب، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب، وإما أن يكونوا من الموالي، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي من تلك الأسباب العامة، وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هي التي أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة .ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي وجعلت حظه من الهزل عظيما: مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق "[137].

ثم يتحدث عن حماد وخلف وأبي عمرة الشيباني، وبعد أن يعرض ما يروى عن مجونهم وفسقهم ووضعهم الأشعار يقول: " وإذا فسدت مروءة الرواة كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبي عمرو الشيباني، وإذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والنحل ككسب المال والتقرب إلى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين، ونكاية العرب ــ نقول: إذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة وأحاطت بهم مثل هذه الظروف، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء ... وهناك طائفة من الرواة غير هؤلاء ليس من شك في أنهم كانوا يتخذون النحل في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب .وكانوا يفعلون ذلك في شيء من السخرية والعبث ونريد بهم هؤلاء الأعراب الذين كان يرتحل إليهم في البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب..."[138].

5 – بعض الشعراء المشكوك في شعرهم :

شك الدكتور طه حسين في شعر بعض الشعراء وحاول أن يقدم مبررات عقلية لشكه من حياة الشاعر أو اضطراب الرواة في رواتهم ومن بين الذين شك فيهم:

---

[137] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 176 .

[138] - ينظر: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 394 – 395 .

أ – امرئ القيس: لقد شك فيه وفي شعره لأسباب، أولها: تضارب الرواة في اسمه وكنيته ونسبه وحياته[139]، ويعقب على آراء الرواة في اسم هذا الشاعر ونسبه بقوله: " ولعل هذا وأشباهه من الخلط في حياة امرئ القيس أن يكون قد وجد حقا، ونحن نرجع ذلك ونكاد نوقن به، فإن الناس لم يعرفوا عنه شيئا إلا اسمه هذا أو طائفة من الأساطير والأحاديث تتصل بهذا الاسم "[140].

وثانيها: أن قسما من حياة من شعره يدور على قصة حياته يفسرها ويؤيدها، هو منحول في نظر طه حسين من قبل الرواة، وثالثها: أن القسم الآخر من شعره المستقل عن الأهواء السياسية والحزبية موضوع منحول كذلك لأن " الضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه بين، والتكلف والإسفاف فيه يكادان يلمسان باليد " .ورابعها: أنه يستثني من هذا القسم الأخير من قصيدتين هما:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

و ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالي

ومع ذلك فهم يشك فيهما من وجوه: الوجه الأول[141]: " أن امرئ القيس – إن صحت أحاديث الرواة – يمني، وشعره قرشي اللغة، لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام .ونحن نعلم – كما قدمنا – أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز، بل في لغة قريش خاصة؟ سيقولون: نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان، وكان أبوه ملكا على بني أسد، وكانت أمه من بني تغلب، وكان مهلهل خاله، فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة

---

[139] - المرجع نفسه، ص 395 .

[140] - محمد تاج، المنظور الإستشراقي في الأدب العربي ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه ص 188 .

[141] - ينظر: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 395 .

اليمن .ولكننا نجهل هذا كله، ولا نستطيع أن نثبته إلا عن طريق الشعر ونصفه بأنه منتحل "[142].

والوجه الثاني: أن امرئ القيس لم يذكر قصة البسوس ولم يذكر شيئا عن خاليه مهلهل وكليب ابني ربيعة .والوجه الثالث: أن الرواة " يختلفون اختلافا كثيرا في رواية القصيدة: في ألفاظها وفي ترتيبها، ويضعون لفظا مكان لفظ وبيتا مكان بيت "[143].

ب – عبيد بن الأبرص: شاعر آخر لمس فيه طه حسين ما لمس من امرئ القيس وهو عبيد بن الأبرص، يقول طه حسين عن هذا الشاعر: " فقد التمسنا سيرته وما يضاف إليه من الشعر وما يعنينا على إثبات شخصية امرئ القيس وشعره فكانت النتيجة محزنة جدا ذلك أنها انتهت بنا إلى أن نقف من عبيد وشعره نفس الموقف الذي وقفناه من امرئ القيس وشعره ". وقد شك الدكتور في عبيد على أن الرواة لم يحدثونا عن عبيد بشيء يقبل التصديق، " وإنما عبيد عن الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات كان صديقا للجن والسماء معا، عمر عمرا طويلا يصل به إلى ثلاثة قرون "[144] ولم يشك طه حسين في شخص عبيد فقط، وإنما شك كذلك في شعره فقال: " فأما شعر عبيد فليس أشد من شخصية وضوحا، فالرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع "[145] .ويقول في شعره الذي عارض فيه امرئ القيس، وهجا فيه كندة، ودليل طه حسين في ذلك أن فيه سهولة وليونة وفيه ضعف وإسراف، كما جاء في كتابه " في الأدب العربي" قوله: " أما شعره الآخر الذي عارض فيه امرئ القيس وهجا فيه كندة فلاحظ له من صحة فيما تعتقد "[146].

---

[142] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 212 .

[143] - ينظر: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 396 .

[144] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 219 .

[145] - المصدر نفسه، ص 220 .

[146] - ينظر: محمد تاج، المنظور الإستشراقي في الأدب العربي ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه ، ص 188 .

ودليله في ذلك القصيدة التي مطلعها:

ياذا المخوفتا بقتـ ل أبيه إدلالا وحينا

أزعمت أنك قد قتلـ ت سراتنا كذبا ومينا

إنها من عمل القصاص وعن هذا الشعر وأشباهه إنما هو من إثر التنافس بين العصبية اليمنية والمصرية .

ج – مهلهل بن ربيعة: كما شك الدكتور طه حسين في المهلهل بن ربيعة لنفس الأسباب أو بعضها وهي الأسباب التالية:

غموض شخصية المهلهل، اضطراب شعره واختلاطه ويقول: " في هذا الشعر اضطرابا واختلاطا، فزعمت أو زعم الرواة أنه لهذا الاضطراب أو الاختلاط سمي مهلهلا لأنه هلهل الشعر، والهلهلة الاضطراب... وليس من شك في أن شعر المهلهل مضطرب فيه هلهلة واختلاط "[147].

وكذلك استقامة وزنه اطراد قافيته، وملائمة قواعد المحو مع أنه أقدم شعر قالته العرب وكذا سهولة لفظه ولينه وإسعافه وقد توصل طه حسين إلى هذا بعد ما استعرض شعر مهلهل ومنه القصيدة التالية:

أليلتنا بذي حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى

فإن يك بالذئاب. طال ليال فقد أبكى من الليل القصير

فلو نبش المقابر عن كليب لأخبر بالذئاب أي زير[148]

---

[147] - ينظر: محمد تاج، المنظور الإستشراقي في الأدب العربي ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه ص 188 .

[148] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 227 - 228 .

د – عمرو بن قميئة: ويشك في عمرو لسببين أيضا هما: غموض حياته، فهو يرى " أن عمرو بن قميئة ضاع كما ضاع امرؤ القيس من الذاكرة، ولم يعرف من أمره

شيء إلا اسمه هذا، كما لم يعرف من أمر امرئ القيس ولا من أمر عبيد إلا اسمهما، ووضعت له قصة كما وضع لكل من صاحبيه قصة، وحمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضا ".والثاني أن في شعره سهولة ولينا[149] وتوليد في قوله:

خليليّ لا تستعجلا أن تزودا أن تجمعا شملي وتنتظرا غدا

فما لبثي يوما بسائق مغنم ولا سرعتي يوما بسائقة الرّدى

وإن تنظرا في اليوم أقض لُبانه وتستوجبا منا على وتحمدا[150]

ويرى طه حسين أن القارئ إذا نظر وتمعن في هذه القصيدة فسيرى بأنها منتحلة ولا حظ له من صدق .

هـ – طرفة بن العبد: وقد شك في شعر طرفة لسببن، الأول: شذوذه عن شعراء ربيعة في قوة متنه وشدة أسره وإغرابه حتى صار شعره " أشبه بشعر المضريين من بشعر الربيعيين "، والثاني: اختفاء شخصيته في القصائد الأخرى غير المعلقة أو غير أبيات من المعلقة .والغريب أنه يورد أبياتا من المعلقة فيقول: " في هذا الشعر شخصية بارزة قوية، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منحولة أو مستعارة "، ثم يقول " ولست أدرى أهذا الشعر، قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر .وليس يعنيني أن يكون طرفة قائل هذا الشعر، بل ليس

[149] - ينظر: ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 397.

[150] - ينظر: طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص 167 – 169 .

يعنيني أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر، وإنما الذي يعنيني هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل "[151].

و – المتلمس: كما شك طه حسين في شعر المتلمس لما فيه من" رقة وإسفاف وابتذال "كشعر ربيعة الذي قدم الإشارة إليه، ولأن تكلف القافية، وخاصة في سينيته، ظاهر ملموس، ثم يقول: " وأكبر الظن أن كل يضاف إلى المتلمس من شعره أو أكثره – على أقل تقدير – مصنوع، الغرض منه تفسير طائفة من الأمثال وطائفة من الأخبار ..."[152]

ي – الأعشى: بالإضافة إلى الشعراء المشكوك فيهم عند طه حسين نجد الأعشى وقد شك فيه لنفس الأسباب التي دعته للشك فيمن سبقه، وذلك لتناقض الأخبار عنه، فهو يقول: " ... ولكن الرّواة بعد هذا لا يعرفون من أمر الأعشى إلا طائفة من الأحاديث لا سبيل إلى الثقة بها أو الاطمئنان إليها. بعض هذه الأحاديث فيه رائحة الأساطير، وبعضها ظاهر فيه الكذب والنحل، وبعضها يستنبط من أبيات من الشعر شائعة على هذا النحو الذي يستنبط به القدماء أخبارهم من شعر لا يعرف من أين جاء "[153].

ثم يشك في شعره بعد أن يقسمه إلى قسمين، الأول: شعر المدح: ويرى أنه منحول عليه وأنه " مظهر من مظاهر العصبية في الإسلام "[154]، وأن " الكثرة من شعر الأعشى قد صنعت في الإسلام في الكوفة، وكانت مظهر من التحالف العصبي بين ربيعة واليمن على

---

[151] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 398.

[152] - المرجع نفسه، ص 398 – 399 .

[153] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 243 – 244 .

[154] - المصدر نفسه، ص 251 .

مضر "[155].والثاني: شعر الغزل وهو يقول عنه: " ولكني أجد في غزل الأعشى لينا شديدا أعرفه في شعر ربيعة وأعلله بالتكلف والنحل "[156].

ويلخص رأيه في الأعشى فيقول: " إنه شاعر عاش في آخر العصر الجاهلي، وتصرف في فنون من الشعر أظهرها الغزل والخمر والوصف، ومدح طائفة من أشراف العرب، ولكن العصبية استغلت هذا المدح، ولعله قد ضاع فأضافت إليه مكانه مدحا كثيرا لليمنيين ومدحا قليلا للمضريين ولا شك في أن بين هذا الشعر الذي يضاف إلى الأعشى مقطوعات وأبياتا يمكن أن يكون الأعشى قد قالها حقا، ولكن تمييز هذه الأبيات والمقطوعات مما يحيط بها من المنحول المتكلف ليس بالشيء اليسير .على أن هذا المنحول الذي يضاف إلى الأعشى مختلف أشد الاختلاف، ففيه الجيد المتقن وفيه الضعيف السخيف ..."[157]

---

[155] - المصدر نفسه، ص 249 .

[156] - المصدر نفسه، ص 252 .

[157] - المصدر نفسه، ص 253 .

المبحث الثالث: مخالفات طه حسين للإسلام

اعتمد الدكتور طه حسين أثناء نقده للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على منهج المستشرقين، ومن بينهم كازانوفا الذي كان يتعرض للقرآن بالنقد والطعن ويحاول أن يغرسه في الشباب العربي، عن طريق إلقائه في الجامعة يقول طه حسين عنه: " أريد أن يعلم الناس جميعا أن الجامعة المصرية حين تدعوا أساتذة من أوروبا لإلقاء الدروس فيها لا تأتي بدعا من الأمر وإنما تتبع في ذلك نهج الجامعات الأوروبية الأمريكية، وهذا الرجل الذي دعته الجامعة ليس رجلا عاديا وإنما هو أستاذ حقا ولقد أريد أن يعلم الناس إني سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيرا لغويا خالصا فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن يتجاوز باب الرواق العباسي لو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة نصوص القرآن الكريم من الوجهة الخالصة على نحو مفيد حقا "[158].

ومفهوم الدين عند طه حسين هو انه ظاهرة اجتماعية وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها، وأشد من ذلك خطرا قوله: " بأن الإسلام لم يغير حياة العرب، وأنه بقي على هامش حياة المسلمين، وأنه لم يستطع أن يفرض حياة المسلمين بين أصحاب الحضارات الأخرى "[159]

وأما رأيه في الشريعة فهو رأي متعصبي المستشرقين من أمثال جولدزيهر، وشاخت، وغيرهم فهو يقول: " ولكننا لا نشك في أن الفقه الإسلامي قد تأثر بالفقه الروماني قليلا

---

[158] - أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، دار الاعتصام، ص 60 .

[159] - ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ج1، دار ماجد عيري للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص 237 .

أو كثيرا شواء علم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا "[160]

1 – القرآن:

1. 1 – الشرك في عبادة الله:

يقتضي الإيمان بالله سبحانه وتعالى الإقرار بتعظيمه وتوحيده، والإخلاص له وحده لا شريك له، وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له،لايجعل منها شيئا لغيره، ولا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلا عن غيرهما، بدليل قوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين" [161].

ومن المعلوم شرعا أن الإيمان بالله عز وجل يقوم على تعظيمه وإجلاله وتقديره، فمتى كان المؤمن معظما لربه ومجلا لشعائره وكان ذلك دلالة قوية على صدق إيمانه وتقواه قال تعالى: "ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب" [162].وأحكام الشرع الحنيف كلها قائمة على تعظيم الله جل وعز، وإن من أعظم ما ينافي هذا التعظيم والإجلال هو السخرية والاستهزاء بالله تعالى أو بشرعه أو بشيء جاء به سبحانه .كيف لا ومقام الألوهية مقام عظيم لا يجاريه مقام .

وقد ظهر من طه حسين بعض الأقوال التي تدل على السخرية بالخالق جل وعلا، حيث كانت السخرية اللاذعة من أبرز صفاته السيئة فهو لا يكاد يسلم من سخريته أحد، بدءا بأهله ومشايخه، ثم ما لبث أن سخر بالكثير ممن عارضوه وخالفوا رأيه، وانتهى به الأمر أن سخر بالدين والنبي صلى الله عليه وسلم ثم بربه الكريم الذي خلقه فسواه فعدله .

---

[160] - ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ج1، دار ماجد عيري للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص 237 .

[161] - سورة الفاتحة، الآية 5 .

[162] - سورة الحج، الآية 23 .

وأبين دليل على ذلك قوله واصفا خلق أحد أصدقائه: "كان قبيح الشكل، نابي الصورة، تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه، وكان إلى القصر أقرب منه إلى الطول .وكان على قصره عريضا ضخم الأطراف مرتبكا كأنما سوِّي على عجل، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد .وكان وجهه جهما غليظا يُخيّل إلى من رآه أن في خديه ورما فاحشا .وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف في الدقة، منبطح غال في الانبطاح، قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم "[163] .

لم يتورع طه حسين أن ينسب التحايل إلى القرآن الكريم الذي هو كلام الله عز وجل وذلك في قوله: " للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها .ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى "[164].

ففي هذا النص الخطير يلاحظ فيه نسبة الحيلة إلى الله عز وجل في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى.وهذا وصف معيب يتنزه المولى عنه لكمال قدرته ومشيئته النافذة قال تعالى: " إنما قولنا لشيء إذا أردنه أن نقول له كن فيكون "[165] فلا حاجة إذن إلى هذه الحيلة المزعومة التي توهمها عقل هذا الرجل المريض.وهي تنافي تعظيم الرب – عز وجل – حيث ينسب إليه ما يتنزّه عنه الكُمَّل من البشر فضلا عن الواحد الأحد .الذي اتصف بصفات الكمال والجلال والجمال .

---

[163] - طه حسين، أديب، مكتبة الأسرة،1998 ص 524 .

[164] - طه حسين، الشعر الجاهلي، دار المعارف، تونس، ط1، 1997، ص 26 .

[165] - سورة النحل، الآية 40 .

وقد تنوعت مخالفات طه حسين بالشرك في عبادة الله عز وجل، مابين إقراره للشرك وممارسته له، فأما إقراره به فهو باعتقاده وجود آلهة تستحق أن تصرف لها العبادة من دون الله عز وجل، كما ثقول في مقال بعنوان باريس: " فما أكثر ما أريد أن أقول، وما أشد عجزي عن تسطير ما أريد القول .وماذا تريد أن أفعل؟ ولست من الغنى ورقة القلب بحيث كان الكاتب الفرنسي (رينان) الذي زار عاصمة العالم القديم فقدم إلى آلهتها هذه الآية الفنية الخالدة التي هي صلاته، إلى آلهة الحكمة في أثينا . ماذا تريد أن أفعل وليس لي حظ (رينان) من الفن ولا من رقة القلب، وقد حرمني الله كل خيال أو قدرة على التصرف في الخيال .ومع ذلك ففي باريس آلهة يستحقون أن يتقدم إليهم الإنسان بالصلاة كما تقدم (رينان) إلى آلهة الحكمة في مدينة أثينا "[166]

فقوله هذا يعد ناقضا من نواقض الإسلام حيث اعتقد استحقاق الله عز وجل بالصلاة وهي نوع من أنواع العبادة التي لا تصرف إلا له – سبحانه – قال تعالى: " واعْبُدُوا اللَّه ولا تُشركوا به شيئاً "[167].

وهكذا يبدو وكأنه يمجد الشرك وصاحبه وينظر إليه من منظار الأدب فقط متغاضيا عن الدين والشّرع، وكيف لا وقد سبق أن دعا إلى نسيان هذا الدين والتجرد منه عند مناقشة أي بحث علمي، وكأن البحث والموضوعية لن تجدي وتؤتي ثمارها إلا بالتجرد من الدين .

وأحيانا يهتز فكره ويضطرب فلا يفرق بين الإيمان والإلحاد، وكأن الفرق بينهما كالفرق بين الطول والقصر أو السواد والبياض الذي لا يلام عليه الإنسان ولا يد له فيه، يقول في مقال بعنوان (السفينة) وقد كتبه بعد أن هاجت به الأمواج وماجت واضطرب البحر اضطرابا شديدا: " في مثل هذا الوقت يذكر المؤمن ربه ويلجأ إليه، ويتقرب إليه بضروب

---

[166] - طه حسين، من بعيد، الشركة العربية للطباعة والنشر، ص 172 .

[167] - سورة النساء، الآية 36 .

العبادة وفنون التقوى، وفي هذا الوقت يؤمن الملحد إن كان ضعيفا .ويزداد عتوا إن كان ممعنا في الإلحاد، فيسخر من الحياة كما يسخر من الموت، يهزأ بما اشتملت عليه هذه، ويزدري ما عسى أن يخفيه هذا .وأعترف بأني في هذا الوقت أحسست شيئا قد ينكره عليّ المؤمنون والملحدون جميعا، أحسست أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان في تقدير نفسه وإكبار منزلتها، ... .

إلى أن يقول: " بهذا شعرت وفي هذا فكرت، وأعترف بأني لم أَلُمْ المؤمن على إيمانه، و لا الملحد على إلحاده .وإنما أحسست شيئا من الإشفاق على هذا وذاك ..."[168]

وهكذا يضطرب من يقرأ هذه السطور في نظرته إلى هذا الكاتب، ولا يدري أمحب هو للإيمان أم محب للإلحاد؟ فمرة يثني على المؤمن ومرة يتعاطف مع الملحد .

ولم يكتف بهذا القدر بل راح أيضا يتحدث عن القسم بغير الله .والحلف نوع من أنواع العبادة لا يجوز صرفه لغير الله فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك "

وقد وقع طه حسين في هذا المحذور الشرعي عندما أقسم باللغة والوطن، يقول: " وأنا أسأل المحافظين عامة والأزهريين خاصة، وأرجو منهم أن يجيبوا مخلصين، أقسم عليهم في ذلك باللغة التي يؤثرونها، والدين الذي يحبونه، والوطن الذي يريدونه أن ينصحوا له ..."[169] .فوجب على المسلم ألا يقسم بغير الله لأنه حق الله تعالى لا يجوز صرفه لغيره .

1. 2 - التشكيك في بعض نصوص القرآن:

الإيمان بكتب الله عز وجل هو الركن الثالث من أركان الإيمان الستة، ومن هذه الكتب ما سماه الله لنا في القرآن الكريم، ومنها لم يسم .والذي أخبرنا به عز وجل منها: التوراة،

---

[168] - ينظر: طه حسين، من بعيد، ص 15 - 17 .

[169] - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص207 .

والإنجيل، والزبور، والصحف التي أنزلها على إبراهيم وموسى، عليهما السلام، وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائهما، وإنما أخبرنا سبحانه وتعالى أن لكل نبي أرسله الله، رسالة بلغها قومه، ويجب علينا أن نؤمن ب هذه الكتب جميعا ماسمي منها وما لم يسم، كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى، كيف لا وقد أنزلها الله تعالى فكل ما فيها حق - قبل أن تصل إليها أيدي البشر بالتحريف والتبديل - والقرآن الكريم هو آخرها نزولا، وقد خصه المولى سبحانه وتعالى بميزات عظيمة ومنها: أنه الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه، فقال عز وجل: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" [170].

وقد وقع طه حسين فيما يخالف هذه العقيدة عندما ذكر في كتابه (في الشعر الجاهلي) ما يضادها في قوله: " للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة فيها "[171]

ولم بهذا بل اتبع ذلك بقوله: " ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى "[172].

بل ويسوِّغ لنفسه أن يسمي قصص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، حول إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل عليه السلام، أسطورة وهو يعلم تماما أن الأسطورة ما هي إلا خرافة رددها الناس كثيرا ولا حقيقة لوجودها يقول: " وقد كانت قريش

---

[170] - سورة الحجر، الآية 9 .

[171] - طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص 38 .

[172] - المصدر السابق، ص 38 .

مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح "[173].

ويقول أيضا:" ...فنحن نلمح في الأساطير أن شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران، ونحن نلمح في الأساطير أيضا أن هذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت إلى حبر الفيل التي ذكرت في القرآن "[174]

وهكذا طاب لعميد الأدب أن يرد كل نص ورد فيه ذكر إبراهيم وإسماعيل عليه السلام، حتى وإن ورد هذا النص في أحق كتاب وأصدق قول، قال تعالى: " وتَمَّتْ كلمتُ ربِّك صدقاً وعدلاً "[175]، ولكن طه حسين ينكر هذا كله بجرة قلم.

ويقول محمد محمد حسين متحدثا عن كتاب طه حسين وما فيه من كفر صراح: "وقد كان أخطر ما ظهر في هذه الفترة مما يدعو إلى هدم التدين، كتاب أثار عند ظهوره ضجة هائلة في الصحف وفي المجلس النيابي، وتناولت السلطات القضائية مؤلفه بالتحقيق،وجمعت نسخه من الأسواق حتى لا يتداولها الناس، وذلك هو كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين، الذي ظهر عام 1962 م، بعد أن ألقاه صاحبه على طلبة السنة الأولى في كلية الآداب خلال العام الدراسي المنصرم "[176].

ويقول كذلك مبينا فساد مهج طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) : " ...إن منهج مؤلفه في الاستدلال على ما يذهب إليه فاسد من الناحية المنطقية، فهو يبدأ تفكيره في أغلب الأحيان بفرض هو من محض تخيل مبني على الحدس والظن، ولكنه لا يلبث أن ينسى أنه لم يثبت هذا الفرض، فيضعه موضع القضية المفروغ من صحتها والمسلم بها، ويمضي في الاستنتاج . فهو مثلا يفترض ما روي عن ابن عباس من حفظ الشعر القديم

---

[173] - المصدر نفسه، ص 39 .

[174] - المصدر نفسه، 40 .

[175] - سورة الأنعام، الآية 115 .

[176] - محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، مؤسسة الرسالة، ج2، ص 296 .

والاستشهاد به في معرض تفسير القرآن، إنما اخترع اختراعا لإثبات أن ألفاظ القرآن كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب (وهو كلام بين الفساد والتفاهة) " أو أنه قد اخترع لإثبات أن عبد الله بن عباس كان من أحفظ الناس لكلام العرب الجاهليين، وهو يبدأ كلامه هذا بقوله: "أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس قد اخترعت لكذا وكذا من الأسباب .؟" ولكنه لا يلبث أن يستنتج من هذا الفرض الذي هو محض تخيل وادعاء أن إثبات قوة الذاكرة لابن عباس يخدم أهداف الشيعة الأساسية. [177]

إن كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) مملوء بروح الإلحاد والزندقة، وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه، لا يجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم، والموجب للخلف والشقاق في الأمة، وإثارة فتنة عنيفة ودينية ضد دين الدولة ودين الأمة "[178] والكتاب وإن وضع فيظاهره لإنكار الشعر الجاهلي، ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر ومعولا لهدم الأديان، وكأنه ما وضع إلا ليأتي عليها من أصولها وبخاصة الدين الإسلامي، فإنه تذرع بهذا البحث إلى إنكار أصل كبير من أصول اللغة العربية من الشعر والنثر قبل الإسلام مما يرجع إليه في فهم القرآن والحديث، وهذا يرمي إليه الكتاب في جملته "[179]

وبهذا كذّب طه حسين كثيرا من الآيات التي ورد فيها ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام، ومن ذلك قوله تعالى: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"[180] وقوله تعالى: "وإذ بوَّأْنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهِّر بيتيَ للطائفينَ والقائمين والركَّع

---

[177] - المرجع نفسه، ص 300 .

[178] - مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، 2002، ص 167 .

[179] - محمد محمد حسين، الإتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، ص 301 .

[180] - سورة البقرة، الآية 127 .

السُّجودِ ،وأذِّن في الناس بالحج يأتوك ورجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق"[181] .وقوله تعالى: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا لإبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود" [182] إلى غير ذلك من الآيات .....

1. 3 - نقده للقرآن الكريم: ويشمل

نقده للسور المكية والمدنية .

زعمه اضطراب الضمائر في القرآن .

لم يتورع طه حسين عن نقده القرآن الكريم ووصفه لآياته بالقوة حينا وبالضعف حينا آخر، وليس هذا بمستغرب عليه فهو فيما سبق ذكره رد كثيرا من نصوص القرآن الكريم .

ومما يؤكد نقده للقرآن الكريم قوله بعد أن تحدث عن الكتب الدينية: " بقيت خطوة يجب أن نخطوها، ولست أدري أيتاح لنا أن نخطوها في هذا العصر الذي نحن فيه؟ أم يحول بيننا وبينها الجهل والجمود؟ إذا كان من حق الناس جميعا أن يقرأوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني، فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم، فلا يغض منها، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد؟ وبعبارة أوضح: لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضوع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية؟ "[183]

وهو في هذا القول يزعم أن هذا النقد منه لا يمس مكانة القرآن ولا يقدح في تعظيمه وإجلاله وسيتضح لنا من خلال نقده للسور المكية والمدنية بألفاظ غاية في السخف والجرأة على نصوص الوحي كذب ما ادعاه وزعمه لنفسه من تعظيم لهذه النصوص .

---

[181] - سورة الحج، الآية 26 – 27 .

[182] - سورة البقرة، الآية 125 .

[183] - طه حسين، رحلة الربيع والصيف، دار العلم للملايين، بيروت، 1957 ص 218 .

ألقى النائب المحترم الدكتور(عبد الحميد سعيد) بياناً في مجلس النواب[184] في دورة سنة 1932 عن موقف الدكتور طه حسين أحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية تجاه القرآن الكريم ، جاء فيه أن هذا الأستاذ أملى على التلاميذ في سنة 1927 نقدًا للقرآن ، وقد ذكره بنصه ، وهو : "وصلنا في المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب في القرآن ، وقررنا أنه ليس على نسق واحد، واليوم نوضح هذه الفكرة فنقول: لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الجريء ،الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر ، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين ،لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ، أو تأثر ببيئات متباينة. فمثلاً نرى القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ،كما نشاهد أن القسم المدني أو اليثربي تلوح عليه أمارة الثقافة والاستنارة.

فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم المكي يتفرد بالعنف والشدة، والقسوة والحدة،الغضب والسباب، والوعيد والتهديد[185] ، مثل : "تبت يدا أبي لهب وتب .ما أغنى عنه ماله وما كسب.سيصلى نارا ذات لهب .وامرأته حمالة الحطب .في جيدها حبل من مسد"[186] "والعصر .إن الإنسان لفي خُسرٍ"[187] "فصبَّ عليهم ربُّك سوط عذابٍ .إن ربَّك لبالمرصاد" [188] "كلا لو تعلمون علم اليقين .لترون الجحيم" [189] ويمتاز هذا القسم

---

[184] - محمد أحمد عرفة، نقض مطاعن فى القرآن الكريم، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط2، 1986، ص 1 .

[185] - محمد أحمد عرفة، نقض مطاعن فى القرآن الكريم، ص 2 – 3 .

[186] - سورة المسد، الآية 1 – 4 .

[187] - سورة العصر، الآية 1 – 2

[188] - سورة الفجر، الآية 13 – 14.

[189] - سورة التكاثر، الآية 5 – 6.

أيضاً بالهروب من المناقش ، وبالخلو من المنطق ، فيقول: "قل يا أيها الكافرون .لا أعبد ما تعبدون "إلى قوله " لكم دينكم وليَ ديني"[190]

ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة، واقتضاب المعاني، وقصر الآيات، والخلو التام من التشريع والقوانين.كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والتين والزيتون ...إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخرًا وانحطاطاً.

أما القسم المدني فهو هادئ لين وديع مسالم، يقابل السوء بالحسنى، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة، والبرهان الساكن الرزين، فيقول: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"[191]ويهجر مع أعدائه الترهيب والقسوة، ويسلك سبيل الترغيب والتطميع في المكافأة .فيقول تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"[192] "ومن يتق الله يجعل له مخرجا .ويرزقه من حيث لا يحتسب"[193].

كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية ، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة ، يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن[194].

أما طول الآيات في هذا القسم فهذا أمر جلي ظاهر، لأن إحدى آياته قد تزيد

---

[190] - سورة الكافرون، الآية 1 – 2 – 6 .

[191] - سورة الأنبياء، الآية 22 .

[192] - سورة آل عمران، الآية 31 .

[193] - سورة الطلاق، الآية 2 – 3 .

[194] - محمد أحمد عرفة، نقض مطاعن فى القرآن الكريم، ص 2 – 3 .

على عدة سور بتمامها من القسم المكي أما أفكاره فهي منسجمة متسلسلة، ترمى أحياناً إلى غايات اجتماعية وأخلاقية. وعلى الجملة فإن ما في هذا القسم المدني من هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ يدل دلالة صريحة على أن الظروف التي أحاطت بهذا الكتاب إبان نشأته قد تطورت تطورًا قوياً.

هناك موضوع آخر يجب أن أنبهكم إليه ، وهو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التي تبتدئ بها بعض السور مثل : ألم، ألر، طس، كهيعص، حم، عسق ... الخ. فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند

العرب، فمثلاً (كهيعص) رمزًا لمصحف(ابن مسعود) ، (حم عسق) رمزًا لمصحف (ابن عباس) ، (طس) رمزًا لمصحف (ابن عمر) ... وهلم جرا ، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً[195].

1. 3 - بشرية القرآن الكريم:

لقد كان موقف طه حسين من القرآن الكريم هو ذات موقف أساتذته من المستشرقين اليهود والصليبيين الذين احتضنوه وصنعوا عقله كما يريدون [196].يقول طه حسين: " وليس من اليسير، بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدا كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولما دعوه ولا آمن به بعضهم، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنيته وفيه رد على اليهود وفيه ردعلى النصارى وفيه رج على الصابئة والمجوس، وهو لا يرد على يهود فلسطين ولا على

---

[195] - محمد أحمد عرفة، نقض مطاعن فى القرآن الكريم، ص 2 – 3 .

[196] - جابر رزق، طه حسين الجريمة والإدانة، دار الاعتصام، ص 79 .

نصارى الروم ومجوس الفكرى، وصائبة الجزيرة وحدهم ...وإنما يرد على فرق من العرب كانت ممثلهم في البلاد العربية نفسها ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة "[197] وإذن القرآن – بعبارة أخرى – دين محلي لا إنساني عالمي قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها قال به صاحبه متأثرا بحياته التي عاشها وعاش فيها، ولذلك يعبر تعبيرا صادقا عن هذه الحياة أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفا عاما للإنسانية فليس ذلك بحق.إنه دين بشري ليس وحيا إلهيا ...قاله صاحبه لقوم معينين ولذلك تحاربوا معه أو قاموا ضده ولو أن صاحبه قاله في جماعة أخرى (لما حفل به أحد)لأن مايقوله فيه لا يتصل عندئذ بحياة الجماعة الأخرى في قليل أو كثير ." فالقرآن مؤلف ومؤلفه نبيه محمد ويمتاز تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه جزيرة العرب في اتجاهات حياتها المختلفة: السياسية والاقتصادية والدينية[198].

القرآن إذن مصنوع مؤلف، و" هو مرآة لأفق خاص من الحياة، هو أفق الحياة في شبه الجزيرة العربية في مكة بوجه خاص.

وكان طه حسين يقول لطلبته في كلية الآداب:" ليس القرآن إلا كتابا ككل الكتب الخاضعة للنقد، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيا عن قداسته التي تتصورونها وأن تعتبروه كتابا عاديا فتقولوا فيه كلمتكم ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبين مايأخذه عليه "[199]

---

[197] - المرجع السابق، ص 82 .

[198] - محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، ط4، ص 215 – 216.

[199] - المرجع نفسه، ص 84 .

2 – السنة النبوية:

جمع طه حسين كل السموم والشبهات التي أثارها الإستشراق في مختلف كتبه وفي دائرة المعارف الإسلامية وأدخلها في دراسته عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان والصحابة رضي الله عنهم حتى يمكن القول بأن " على هامش السيرة " يمكن أن يسمى " على هامش الشعر الجاهلي " . ولقد وضع الكتاب على نمط كتاب غربي كتبه " ألفريد أورشيم " الأستاذ بجامعة أكسفورد .[200]

يقول طه حسين في كتاب " الإسلام والغرب " الصادر عام 1946 في باريس " ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلتا موقدين مختلفين، أحد الكتابين لـ (جيل لوميتر) وعنوانه " على هامش الكتب القديمة "، والثاني " حياة محمد " لـ (اميل دور منجم).قال هذا في أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام ويعد كتابه خطوة في هذا السبيل من حيث دمج الأديان كلها في كتاب واحد، وفي اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير في الأدب العربي .

وقد رد عليه الأستاذ غازي في كتابه عن الفكر الإسلامي المعاصر،[201] " ليس من شك في أن تناول السيرة بقصد الاستراحة من جهد الحياة وعنائها والترفيه عن النفس، وإرضاء ميل الإنسان إلى السذاجة وتنمية بعض عواطف الخير، ليس من شك أنها سابقة خطيرة لا يحسد عليها طه حسين، لأن المسلمين كتبوا – كثيرا – في سيرة نبيهم صلوات الله عليه، ومحصوا أحداثها وميزوا دقائقها .وبوبوا تفاصيلها، وكان نظرهم خلال ذلك كله وبعده .يرمق في محمد صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى للإنسانية ويلتذ في ذلك، ويشتم منه الصفات العبقة ويلتذ في ذلك .ولم يقفوا عند حدود الرمق والشتم والالتذاذ .ولكن سعت أقدامهم في لحظة الرمق والشتم نفسها ومشت على طريق محمد .فزكوا أنفسهم كما زكى

---

[200] - ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ص 245 .

[201] - المرجع السابق، ص 246 .

محمد نفسه، وعبدوا ربهم كما عبد محمد ربه، وعاملوا الناس كما عامل محمد الناس، وجاهدوا الشرك والباطل كما جاهد محمد الشرك والباطل ...الخ .

كتب المسلمون الذي كتبوه في سيرة نبيهم، ومحصوا الذي محصوه، وبوبوا الذي بوبوه، قاصدين الاقتداء به، والعمل مثل عمله، وشتان بين ما هدف إليه طه حسين وما ذهب إليه رواة السيرة .[202]

وقال الدكتور محمد حسين هيكل : " في رأيي أن لا تتخذ حياة النبي صلى الله عليه وسلم مادة الأدب الأسطوري، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب.

والنبي صلى الله عليه وسلم وسيرته تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا بل هي فلذة من هذه الحياة، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثرا، واعلم أن هذه الإسرائيليات قد أريد بها إقامة (ميتولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواء شعب، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى النفوس في شأن الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم، وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام "[203]

ولا ريب أن كلام الدكتور محمد حسين هيكل هذا هو اتهام صريح للدكتور طه حسين في اتجاهه وتحميل له مسؤولية من أخطر المسؤوليات وهي إعادة إضافة الأساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم منها طوال العصور وإعادتها مرة أخرى لخلق جو معين يؤدي إلى إفساد العقول في سواد الشعب، وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شان الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم .

---

[202] - محمود مهدي الاستانبولي، طه حسين في ميزان الأدباء، المكتب الاسلامي، ط1، 1983، ص 110 .

[203] - سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ص 246 .

ومن أخطر مزاعمه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أحب زينب بنت جحش وهي زوجة لزيد وهذا بهتان عظيم .[204] إذ يقول: " ولكن الله يريد أن يلغي نظام التبني أن يرد الناس إلى أنسابهم، وأن يدعوا الأبناء لآبائهم، وإذا هو يمتحن في ذلك نبيه، ويمتحن في ذلك زيدا، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعا، يلقي في قلب النبي حب زينب زوج، ويلقي في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها .

وهذه نفس محمد مضطربة أشد الاضطراب، ممتنعة أشد الامتناع، واجمة أشد الوجوم،ترفض هذا الحب رفضا وتزور عنه إزورارا، وإذا هي تنكره حتى على نفسها .ولكن الله يبدي ما تخفي، ويعرف الناس ما تنكره، وإذا زيد يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهاه ويزجره ويحذره "[205] .وهذه الفكرة التي عرضها طه حسين ماهي إلا زعم من مزاعم المستشرقين الذين عجزوا عن ذكر رواية صحيحة حول هذه المسألة .[206]

ولقد وصف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي كتاب " على هامش السيرة " بأنه تهكم صريح .وأن صاحبها افتضح أشد فضيحة وأخزاها، عندما رد على المستشرق هوار الذي زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من شعر أمية بن أبي الصلت واستعان به في نظم القرآن .[207] وقد زعم الأستاذ (كليمان هوار) في فصل طويل نشرته له المجلة الآسيوية سنة 1804 – أنه ظفر من ذلك بشيء قيم واستكشف مصدرا جديدا من مصادر القرآن، هذا الشيء القيم وهذا المصدر الجديد هو شعر أمية بن أبي الصلت .وقد أطال الأستاذ (هوار) في هذا البحث وقارن بين هذا الشعر الذي ينسب إلى أمية ابن أبي الصلت وبين آيات من القرآن، وانتهى من هذه المقارنة على نتيجتين:

---

[204] - ينظر: المرجع نفسه، ص 247 .

[205] - محمد مسرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم، ط2، 1988، ص 235 – 236.

[206] - ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[207] - ينظر:مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص 163 .

الأولى: أن هذا الشعر الذي ينسب لأمية بن أبي الصلت صحيح: لأن هناك فروقا بين ما جاء فيه وما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص، ولو كان منتحلا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن .وإذا كان الشعر صحيحا، فيجب في رأي الأستاذ (هوار) أن يكون النبي قد استعان به قليلا أو كثيرا في نظم القرآن .

الثانية: أن صحة هذا الشعر واستعانة النبي به في نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية بن أبي الصلت ومحوه ليستأثر القرآن بالجدة وليصح أن النبي قد انفرد بتلقي الوحي من السماء . وعلى هذا النحو استطاع الأستاذ (هوار) أو خيّل إليه أنه استطاع أن يثبت أن هناك شعرا جاهليا صحيحا، وأن هذا الشعر الجاهلي قد كان له أثر

في القرآن .ومع أني من أشد الناس إعجابا بالأستاذ (هوار) وبطائفة من أصحابه المستشرقين وبما يلهون إليه في كثير من الأحيان من النتائج العلمية القيمة في تاريخ الأدب العربي وبالمناهج التي يتخذونها للبحث،...دون أن أعجب كيف يتورط العلماء أحيانا في مواقف لا صلة بينها وبين العلم.وليس يعنيني هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية أو لا يكون، فأنا لا أؤرخ القرآن، وأنا لا أذود عنه ولا أتعرض للوحي وما يتصل به، ولا للصلة بين القرآن وما كان يتحدث به اليهود والنصارى .كل ذلك لا يعنيني الآن، وإنما الذي يعنيني هو شعر أمية بن أبي الصلت وأمثاله من الشعراء .[208]

وأما رأي طه حسين في النبي صلى الله عليه وسلم فمن أعجب ما عجبنا له أنه ما من عالم أو كاتب مسلم يذكره صلى الله عليه وسلم إلا صلى عليه أو وضع رمز الصيغة ولو هذا الحرف (ص) وترى كتاب المسيحية يأخذون بهذا الأدب في كتبهم العربية، لأن المسلمين يقرؤونها، أما أستاذ الجامعة فكأنه لا يتولى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحس عظمته ولا أثره، فقد ذكره كتابه مرارا تفوت العد فلم يتأدب معه ولا مرة واحدة، فلا بعقيدة المسلمين

---

[208] - طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص 94 – 95 .

أخذ، ولا بمجامله المسيحيين اقتدى، بل طريقته هي طريقة المبشرين بعينها تشعرك وقاحة الكاتب وغرور وانتشار عقده، مع أنهم قالوا إن هذه الصلاة من الرجل المسلم، إنما تكون دليلا على خلوص نيته وقوة عقيدته، وأنه لا شوب فيها ولا شرك، وعلى بشاشة الإيمان قد خالطت قلبه، ولكن شيخ الجامعة قد تجرد من دينه منذ الصفحة الأولى، وقد والله صدق فيه الحديث: " رغم أنف عبد ذكرت عنده فلم يصل علي" فما أنف أرغم من أنف طه حسين وذلا وخزيا ولعنة "[209]

وقد قام بالتلاعب بالحقائق التاريخية المتعلقة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعصره، حيث أراد أن يثبت النبوة كانت اعتقادا معروفا في مكة، والناس يتشوفون ظهور النبي، بل إن كل فتى في مكة كان يتطلع ويسعى ليكون صاحب الفضل[210] .

وضخم الحوادث المتصلة بحياة المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وملأها بالأحاديث الموضوعة حتى ليظن القارئ أن أهل مكة كانوا يعلمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم سيكون نبيا .

3 - الصحابة: لم يرد الإسلام أن يضع الناس في حرج فيرسم لهم نظم لإدارة أو يبين لهم دستورا نمط هذه الدساتير التي تتغير على حسب العصور وتختلف باختلاف البلاد، فلا يليق بحكمة التشريع السماوي أن ينص على بعض الأحكام القائمة على مصالح ثابتة وعامة، ويضع أصولا ثابتة يستنبط منها كل شعب ما يطابق مصالحه ويلائم عوائده .وهذا ما يفهمه الراسخون في العلم، وهذا ما يسير عليه الأئمة المجتهدون .فلو عمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة زمنا طويلا لم يزد على بناء هذا التشريع لبنة، ولم يبد له أن يسن دستورا كدساتير هذه الدول لا يلبث أن تكبر عنه بعض العصور فيكون غلا في أعناقها، أو تصغر

---

[209] - سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ص 165 .

[210] - محمد مسرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، ص 234 .

عنه فيكون ثوبا فضفاضا .أما الضغائن التي ظهرت والفتن التي استيقظت فلم يكن منشؤها نقصا في التشريع كما يزعم المؤلف، بل سببها قلة العلم بالتشريع، وعدم القدرة على التطبيق أو تغلب الأهواء، إذ لا عصمة إلا لأنبياء الله المصطفين [211].

قال المؤلف: " في الحق أن النبي لم يكد يدع هذه الدنيا حتى اختلف المهاجرون والأنصار من الأوس والخزرج في الخلافة أين تكون؟ وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين وحزم نفر من قريش، ولولا القوة المادية كانت إذ ذاك لقريش فما هي إلا أن أذعنت الأنصار وقبلوا أن تخرج منهم الإدارة إلى قريش ."[212]

لم يكن هناك جيش تحت إمارة وزير أو قائد قرشي، وإنما هي الأمة تنفر للجهاد، وعندما تضع الحرب أوزارها يعود كل واحد إلى حرفته .ولم يكن هنا خزائن للسلاح مفاتيحها يد رجل واحد من قريش، بل كان سلاح كل واحد في يده أو في بيته، ولم يكن السلاح الذي بأيدي قريش أجود من السلاح الذي كان يحمله الأنصار وسائر القبائل العربية .أما المال فقد روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال عن الحسين بن محمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يقبل مالا عنده ولا ببيته، قال أبو عبيدة يعني إن جاء غدوة لم ينتصف النهار حتى يقسمه .وروى أبو داود عن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه .إذن لم يكن هناك مال للأمة تحت يد أمير قريش .

فإن قال المؤلف أريد من القوة المادية أن قريشا أكثر من الأنصار عددا أ أو أنصارا .قلنا الرواية الموثوق فيها تقول: " إن المجتمعين في سقيفة بني ساعدة طرحوا مسألة الخلافة على بساط الشورى فاختلف المؤتمرون أين تكون الخلافة؟ ولمن تكون؟ واشتدت رغبة بن

---

[211] - محمد الخضر حسين، نقض كتاب الشعر الجاهلي، ، ص 150 .

[212] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 121.

عبادة في أن يتقلد الإمارة على الأنصار، ولما اشتد الجدال بسط عمر بن الخطاب عنها يده وبايع أبا بكر فتتابع الحاضرون من المهاجرين والأنصار على مبايعته، ولم يتخلف أحد عنها إلا سعد بن عبادة، ثم عقد اجتماع عام في المسجد فتوارد الناس على مبايعته وتوانى عنها علي بن أبي طالب حينا ثم أقبل وبايع ووفى .[213]

والرواية تصرح بأن الأوس جنحوا إلى ولاية أبي بكر، وتتابع الخزرج على مبايعته دليل على أنهم لا يجدون في صدورهم حرجا من خلافته، ويروى أن أول من قام وبايع أبا بكر خزرجي يقال له بشير بن سعد وهو أبو النعمان بن بشير .فالظاهر أن عمر لم يمد يده للمبايعة إلا بعد أن تراءى له أن أكثر الآراء متجهة إلى اختيار أبي بكر، وسمى مبايعته فلتة لأنه بادر إليها قبل أن تخرج تلك الآراء في صراحة على ما هو المعهود في نظام الشورى وعذره في هذه المبادرة أن بعض الأنصار أصرف في الجدل وهم بما لا تحمد عقباه .فخلافة أبي بكر لم تعقد لمبايعة عمر بل تقررت بآراء الأغلبية الساحقة، ولم تقع تحت تأثير جند يتحفز أو سلاح يشهر أو مال يبذل، وإذا فرض أن في المهاجرين أو الأنصار من بايعوا متابعة للكثرة السائدة أو حذرا من سخطها فمثل هذا لا يخرج خلافة أبي بكر عن أن تكون قائمة على رضا الأمة[214] . و" أبى سعد بن عبادة الأنصاري أن يبايع أبا بكر، أن يبايع عمر، وأن يصلي بصلاة المسلمين أن يحج بحجهم .وظل يمثل المعارضة ...ماضي العزيمة، إلى أن قتل غيلة في بعض أسفاره "[215].

لم يذكر المؤرخون كابن جرير وابن الأثير وابن خلدون، بأحوال الصحابة كابن حجر وابن عبد البر والذهبي وجمال الدين المزي رواية سعد بن عبادة قتل غيلة بيد السياسة، وإنما تجدها في مثل شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة حين قال بأن أمير الشام كمّن له من رماه

---

[213] - ينظر: محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، ص 150- 151 .

[214] - ينظر: المرجع نفسه، ص151 – 152 .

[215] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص 121 .

ليلا إلى الصحراء فقتله لخروجه عن طاعة الإمام .وابن أبي الحديد على مذهب الشيعة، والأقرب أن تكون هذه الرواية شيئا يزعمه بعض غلاتهم .ونحن نشك في هذه الرواية ونبحثها بقلب خال من كل ما قيل في موت سعد بن عبادة .

لم ترد هذه الرواية في الكتب المبسوطة في التاريخ أو في التعريف بأحوال الصحابة وهذا أمارة على أنها لم تدخل في دائرة العلم التي جاس خلالها هؤلاء الحفظ والمؤرخون ولا نجد من هؤلاء إلا من يذكر أن سعدا مات حتف أنفه أو يذكر ما يزعم من الجن قتلته، ومنهم من يحكي أن سبب موته النهش، كما قال ابن قتيبة ويقال أنه نهش وهو الصحيح .

وردت هذه الرواية في بعض كتب لا يؤخذ ما ترويه من الأخبار المتصلة بسياسة أبي بكر أو عمر إلا بالتحفظ والاحتراس، ثم إن ابن أبي الحديد لم يسندها إلى قوم بأسمائهم، فلا ندري من هؤلاء ندري من هؤلاء القوم، وما مبلغ نصيبهم من الصدق أو البهتان، ولا ندري أيضا من هذا الأمير الذي كمن لسعد بن عبادة حتى رماه فقتله، وهم يختلفون في تاريخ وفاة سعد، فقيل في خلافة أبي بكر سنة إحدى عشرة، وقيل في خلافة عمر سنة أربعة عشر أو خمسة عشرة أو ستة عشرة[216].

انصب المؤلف على هذه الرواية لأنها وصمة في سيرة الخلافة الرشيدة، وأعرض عن الرواية التي تقول وتتابع القوم على المبيعة وبايع سعد لأنها تجعل خلافة أبي بكر منعقدة بإجماع وتنفي أن يكون هناك من يمثل المعارضة قوي الشكيمة ماضي العزيمة .هذا إيحاء بغدر المسلمين، والمسلم لا يغدر وكان بإمكان المسلمين قتله بغير هذه الطريقة .فمتى وقع نظر المؤلف على رواية تمس سياسة العرب بعد الإسلام ضرب منهج ديكارت برجله، وكان أجرى إليه من الماء في صبب[217].

---

[216] - ينظر:محمد الخضر حسين، نقض كتاب الشعر الجاهلي، ص 152 .

[217] - المرجع نفسه، ص 152 .

وقارئ هذا القول الهراء يظن أنه يتلو تاريخ أحد كبار الملحدين الغربيين أو مشاهير الثوار الدوليين والحق أن المؤلف" الصادق الأمين الصريح" كذب على التاريخ وخان أمانة التمحيص، فإن سعد بن عبادة الأنصاري وردت أخباره في أصدق مصدر فهو صحابي عظيم كان وجيها في الأنصار ذا رياسة وسيادة يعترف قومه له بها ودعا له رسول الله بقوله" اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة فرجل هذه مناقبه ومكانته عند رسول الله يستبعد عليه أن يخرج على إجماع الأمة ...ولكنه لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم جلس سعد في سقيفة بني ساعدة فبايع الناس أبا بكر، فسار سعد إلى الشام فأقام بحوران إلى أن مات سنة 15 هـ ... فجلوس سعد بن عبادة في السقيفة لا يدل على خروجه أو مخالفته أو حسده لأبي بكر ولا نظن أن المؤلف كان ينتظر ألا تحدث مناقشة عقب وفاة الرسول في أمر الخلافة كما هو الشأن في المسائل ذات الخطورة "[218]

لقد تخيل مؤلف الشعر الجاهلي أن مبايعة أبي بكر أغضبت صحابيا جليل كسعد،فاختلق هذا الخبر الغريب ونسب إلى الصحابي الجليل أنه أبى أن يصلي ويحج وظل يمثل المعارضة،ولم يفتر المؤلف هذه الفرية المخزية إلا لشغفه بتمجيد أهل الجحود فأين تلك التي كان زعيمها سعد بن عبادة وفي أي كتاب شعوبي أو شيوعي قرأت هذه النبذة فلم نقرأ في تاريخه ما يدل على سعيه في ثورة أو فتنة أو لوثته بردة حتى يهجر الصلاة والصيام والزكاة والحج"[219]

وقد ذكر الرواة أن عمر مر ذات يوم فإذا حسان في نفر من المسلمين ينشدهم شعرا في مسجد النبي، فأخذ بأذنه وقال" :أرغاء كرغاء البعير !قال حسان" :إليك عني يا عمر، فو الله لقد كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك فيرضى، فمضى عمر وتركه .وفقه هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ما قدمنا من أن الأنصار كانوا موتورين، وأن عصبيتهم كانت لا تطمئن إلى

---

[218] - محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد، ط1، 1962، ص 184 – 185 .

[219] - المرجع نفسه، ص 185 – 186 .

انصراف الأمر عنهم فكانوا يتعزون بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش وما كان لهم من البلاء قبل موت النبي وما أفادوا بألسنتهم من مجد "[220].

وعد المؤلف بأنه سيمشي في البحث على منهج ديكارت، فقلنا":عوج في التاريخ سيقوَّم، وتزوير في الرواية سينجلي، فإذا هو يهجم على ما يقصه التاريخ بلسان لا عقدة فيه، ويحرفه إلى معان ليس بينها وبين اللفظ صلة إلا على طرف لسانه .قصة حسان وردت في كتب الأدب على مثال ما قصها المؤلف نفسه، وقد رأيتم بأعينكم كيف خاض في أحشائها، وركض بين بدايتها ونهايتها ثم خرج منها بادعاء أن حسان كان ينشد من شعره الذي هجا به مشركي قريش، وأن عمر استاء من ذلك الصنيع وأخذته الحمية لقريش، أن أخذ بأذن حسان معنِّفا له عن تعرضه لقريش بإنشاد ذلك الهجاء .وها هي تلك القصة ماثلة بين أيديكم، فلا تدل إلا على أن حسانا كان ينشد شعرا في المسجد بصوت جهير والناس حوله، فكره عمر أن تقام هذه الحفلة في المسجد الذي هو معد للعبادة .ولم يذكر في القصة نوع الشعر، ولحسان قصائد غير ما هجا به عمر إنما كره إلقاء الشعر في المسجد على تلك الهيأة قول حسان ":لقد كنت أنشد في هذا قريشا، فقد قال في الجاهلية شعرا كثيرا، وقال في الإسلام ما ليس بهجاء والشاهد من القصة على أن المكان من هو خير منك فيرضى، ولو كان حسان ينشد شعرا في هجاء قريش لم يمض عمر ويتركه وهو الذي نهى الناس أن ينشدوا شيئا من مناقضة الأنصار ومشركي قريش وقال ":في ذلك شتم الحي بالميت وتحديد للضغائن"[221].

نكذب هذه الرواية لأن عمر كان من كريم الخلق وعلو الهمة وشرف النفس والعدل والشهامة بمكان لا يليق معه أن يفعل هذا بحسان بن ثابت، الذي سمع قول النبي" ما يمنع القول الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم " فقال حسان" أنا لها" قال

---

[220] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، 121 – 122 .

[221] - ينظر:محمد الخضر حسين، نقض كتاب الشعر الجاهلي، ص 154 – 155 .

محمد صلى الله عليه وسلم كيف تهجوهم وأنا منهم فقال حسان" :أنا أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين " فضلا عن أنه كان من سادة القوم وأشرافهم... هل هذا الشاعر يؤخذ من أذنه وفي مسجد رسول الله وبيد عمر بن الخطاب ؟نقول للمؤلف قص أساطيرك على سوانا فإنها سخافة لا تجوز"[222].

كان عمر قرشيا تكره عصبيته أن تزدري قريش، وتنكر ما أصابها من هزيمة، وما أشيع عنها من منكر.[223] كان عمر قرشيا مسلما يكره له أدبه أن تزدرى قريش كما يكره له أن تزدرى الأوس والخزرج وقيس وتميم، ويكره له ذلك الأدب أن يزدرى عبد الله بن عمركما يكره له أن تزدرى سلمان الفارسي وبلال الحبشي .أما أنه ينكر ما أصاب قريشا من هزيمة وقد كان من أحرص الناس على هزيمتها، فذلك ما لا تحتمله إلا عقلية" أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية ."لم يكن عمر بعد الإسلام قرشيا ولم تكن له عصبية قريش التي كانت في الجاهلية قد تلاشت، بل كان أميرا حازما وخليفة عادلا "[224]

ولقد تطاول طه حسين أيضا على عثمان بن عفان - رضي الله عنه – ووصمه بالظلم والطغيان، وأنه مازال يضرب ابن مسعود حتى كسر أضلاعه[225]، وكذب على عائشة – رضي الله عنها – وزعم أنها وقفت على جملها تخطب الناس وتحثهم على القتال بلسان زلق، ومنطق عذب، وحجة ظاهرة القوة ...[226]

وتناول أيضا خالد بن الوليد – رضي الله عنه – من غير استحياء ويصفه بثلاث من البهتان: فخالد عنيف وفي سيفه رهق، لأنه يحب القتل، وخالد يحب التزوج، وخالد وعشيرته

---

[222] - محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد، ص 186 .

[223] - طه حسين، في الأدب الجاهلي، 122 .

[224] - محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد، ص 189 .

[225] - طه حسين، الوعد الحق، دار المعارف بمصر، ط 28، ص 157 .

[226] - محمد مسرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، ص 254 .

معروفون بالعجب والخيلاء .[227] كما شتم معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – في قوله: " وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبي هو أبو ذر ... ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثاره إياه ولسابقته في الإسلام.ولم يستطع أن يفتنه عن دينه بالمال "[228]

هذا وقد جعل طه حسين حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس (لصا) يأخذ ما في بيت المال في البصرة ويهرب إلى الحجاز [229].ووصف أصحاب الشورى الذين اجتمعوا ليختاروا خليفة المسلمين بعد عمر – رضي الله عنه – بإيثار الدنيا ومحبتها ووصف بها حملة الصحابة الذين كانوا ينافقون في خلافة عمر – رضي الله عنه – كما زعم وأنهم كانوا يظهرون شظف العيش إذا دخلوا عليه، وإذا خلوا إلى أنفسهم عادوا إلى لين الحياة .[230]

وهذه التهم التي ألصقها طه حسين بالصحابة فرادى وجماعات هي حق البهتان العظيم الذي لا يمتري فيه أي مسلم .وبالإضافة إلى كل هذا فقد زعم طه حسين أن نظام الخلافة

ليس إلهيا وأنه قد أخفق ، وأن تجربة الحكم الإسلامي انتهت أيضا بالإخفاق، أما نظام الشورى الذي وضعه عمر – رضي الله عنه – لاختيار الخليفة فلا يخلو – عنده – من نقص، بل من نقص شديد .[231]

---

[227] - طه حسين، الشيخان، دار المعارف بمصر، ط3، 1966، ص 79 – 80 .

[228]- محمد مسرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، ص 256 .

[229] - طه حسين، الفتنة الكبرى، ج2، دار المعارف، ط12، ص 125 .

[230] - طه حسين، الشيخان، ص 145 .

[231] - طه حسين، الفتنة الكبرى، ج1، دار المعارف، ص 60 .

المبحث الرابع: مخالفات طه حسين في القضايا السياسية والاقتصادية

تعتبر القضايا السياسية والاقتصادية تطبيقاً عملياً للعقيدة، وتنفيذاً واقعياً للأفكار التي يؤمن بها الإنسان.

"ومن المعلوم بداهةً، أن لكل أمة من أمم الأرض عقيدة، آمنت بها ورضيت بأن تكون قاعدتها الفكرية، تبني عليها أفكار حياتها ,وعلى أساس هذه العقيدة، تعالج كل مشكلاتها، وتحل على أساسها قضاياها، وتسن بموجبها أنظمتها وقوانينها، وتحدد بها وجهة نظرها في الحياة، وتعيّن غايتها في الدنيا فقط.

وبعبارة أخرى :إن جميع أنظمة الحياة، وجميع حلول مشكلاتها ومعالجة قضاياها، تنبثق عن عقيدة تلك الأمة، وتبني عليها ,وتسير بتوجيهها، فكان بذلك لكل نظام عقيدة.

وهذه العقيدة هي الضمانة الحقيقية لحسن تطبيق الأنظمة في المجتمع، وهي الحارس الأمين من الإساءة في التطبيق والتنفيذ، كما هي الدافع الذاتي الذي يوجد الإخلاص الخالص والولاء الصادق لكل الأنظمة ومعالجة المشكلات.

وبقدر صحة وصلاح العقيدةن تكون صحة وصلاحية النظام المنبثق عنها ,وبذلك تسعد الأمة سعادة حقه، يسيطر عليها الاطمئنان الروحي والارتياح النفسي الدائمان، وترفل الأمة بالرفاهية المتبقية في حياتها وتأخذها بالعروج نحو سلّم المجد والرقي.

أمّا إذا كانت العقيدة فاسدة أو خاطئة، فإن ما انبثق عنها من أنظمة ,وما بني عليها من أفكار تكون فاسدة وخاطئة، لأن ما قام على الفاسد فاسد[232]" .وعلى هذا الأساس

---

[232] - سعيد بن ناصر الغامدي، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ج3، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط1، 2003، ص 2138 .

يتضح ما تتضمنه النظم السياسية والاقتصادية من فساد نتيجة فساد العقيدة ,وقد دعا طه حسين إلى بعض هذه النظم ومنها:

1 – **القومية:**

هي شعور جميع أبناء الأصل الواحد والعرق المشترك بالولاء والانتماء لأصلهم الذي جاءوا منه، وعرقهم الذي انفصلوا عنه، مهما تعددت الأوطان التي يعيشون فيها، والأرض التي يزاولون حياتهم عليها .

وهي شعار معاصر، ظهر في أوروبا منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وكان ظهورها بديلاً للرابط الديني، في أعقاب سيادة الاتجاه العلماني، وضعف الرابط الديني شعبياً، وبتره سياسياً.

ونظراً لما خططه أعداء الإسلام من مكائد ضد الإسلام والمسلمين فقد قامت دعوات قومية بين المسلمين، كالقومية العربية بين العرب، والقومية الطورانية بين الأتراك ,والقومية الكردية بين الأكراد، والقومية الفارسية بين الفرس ونحو ذلك..... وكان من أكبر أهداف الأعداء لهذه القومية هو القضاء على الخلافة الإسلامية في تركيا، وتمكين الدول الاستعمارية من الاستيلاء على معظم البلدان العربية وشعوبها.

ثم قامت التكتلات القومية، كالأحزاب والمنظمات القومية، وإقامة الرابط القومي بدل الرابط الديني الإسلامي، الذي كان سائداً في الشعوب العربية " [233]

والمتتبّع لموضوع الشعوبية يجد أن من رفع راياتها من الفرس والعرب هم من المنحرفين كما يتضح له أبرز سمات الشعوبية ومنها:

- ✓ بغض العرب، والاستخفاف بهم، والتحقير من شأنهم.

---

[233] - ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، كواشف زيّوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم،دمشق، ط3، 1998، ص 263 وما بعدها.

- ✓ إلغاء معيار العقيدة والدين أو التقليل من شأنها، والاعتماد على معيار العرق واللغة والوطن.
- ✓ قيامها على جوانب فكرية وسياسية وأدبية تستهدف الكيد للعرب ومنعهم من تحقيق ازدهارهم.
- ✓ تشويه تاريخ العرب وتصغير شأنهم وإنكار أي دور حضاري لهم.
- ✓ التنقيص من قدر اللغة العربية والتهوين من شأنها والسعي في إضعافها وتدميرها ,وإلصاق شتى التهم بها كالتخلف والبربرية، والجفاء والجمود وغير ذلك...
- ✓ اتخاذ الشعوبية طريقاً، لمضادة الإسلام ومحاربة أهله.
- ✓ إحياء تراث الملل والنحل للشعوب غير العربية التي كانت قبل الإسلام وغير ذلك... [234] "والمتأمل في كتابات المستغربين العلمانيين والحداثيين يرى أنهم الامتداد الحقيقي للفكرة الشعوبية، والصورة الأكثر خبثاً أيضاً، ذلك أنهم أو أكثرهم أضاف إلى شعوبيته وبغضه للعرب، أمة وجنساً ولغة ،بغضه للدين وإلحاده المكشوف وشركه بالله تعالى ,وغير ذلك من أنواع الانحراف الاعتقادي والخلقي والعملي"[235]

وقد دعا طه حسين إلى الفرعونية – التي هي إحدى ثمار الشعوبية – دعوة صريحة فيقول: " إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وستبقى كذلك ,بل يجب أن تبقى وتقوى، والمصري فرعوني قبل أن يكون عربيا، ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها، وإلا كان معنى ذلك: اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام، وانسي نفسك واتبعينا، لا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطي، مصر لن تدخل في وحدة عربية، سواء كانت العاصمة أم القاهرة أم دمشق أم بغداد، وأؤكد قول أحد الطلبة القائل: لو وقف الدين الإسلامي حاجزا بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه "[236].

---

[234] - ينظر: سعيد بن ناصر الغامدي ، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ص 706 .

[235] - المرجع نفسه، ص 707 .

[236] - أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، ص 14 وما بعدها.

كذلك جعل الشعار الفرعوني هو شعار الجامعة وقد لقي ذلك كله معارضة وخصومة واسعة وصلت إلى كل مكان في البلاد العربية، وأرسل الأستاذ توفيق الفكيكي من العراق إلى طه حسين برقية قال فيها :"إن شعاركم الفرعوني سيكسبكم الشنار،وستبقى أرض الكنانة وطن الإسلام والعروبة برغم الفرعونية المندحرة."[237]

2 – الديمقراطية:

نظام يعني حكم الشعب لنفسه، أو على الأصح حكم الفقراء، ويتميز عن النظام الديكتاتوري بأنه حكم الأغلبية وليس حكم الصفوة أو الأقلية العسكرية أو الدينية أو الأغنياء.وهي حكم الطبقة العاملة .

نشأت الديمقراطية أول ما نشأت في الغرب طبعا، وكان أهم سبب لمنشئها هو سيطرة الإمبراطورية الرومانية والقانون الروماني المتسم بالإقطاعية والظلم الذي تؤيده الكنيسة، ويحميه رجال الدين، إذ لم يكن للناس مع الإقطاعيين الذين يسمون النبلاء والأشراف ورجال الدين أي وجود إنساني إلا كونهم مجموعة من القطع الآدمية اللاصقة بالتراب حيث لا حقوق لهم ولا كرامة، ولا منزلة، وعليهم كل الواجبات والعقوبات .[238]

" وفي أجواء هذه المظالم انفجرت الثورة الفرنسية، التي قامت على فلسفة وتراث الإغريق والرومان، حيث ارتدت إلى الوراء تبحث عن شيء يحل مشكلاتها وينظم حياتها بديلا عن الإقطاع والدين، فوقع اختيارهم على (الديمقراطية)، حيث تكون الطبقة المسحوقة (طبقة الشعب) هي الطبقة الثائرة التي تسعى إلى المشاركة في الحكم والسلطان، ويتحول المال من الإقطاعيين ليصبح رأس مال في أيدي الطبقة الجديدة، (الطبقة الرأسمالية) التي بدأت تزدهر بعد تحول الإنتاج من القطاع الزراعي إلى القطاع الصناعي بعد اختراع الآلة، وكانت هذه الطبقة الجديدة هي الأداة المناسبة في الثورة الجديدة التي بدأت بالثورة الفرنسية تحت الشعارات

---

[237] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[238] - ينظر: سعيد بن ناصر الغامدي ، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ص 2156 .

التي وضعتها الماسونية واليهودية لهذه الثورة وهي (الحرية والإخاء والمساواة) ليتحقق لليهود ما يطمحون إليه من مآرب "[239].والحكم الديمقراطي بمقتضى تعريف الديمقراطيين له وبمقتضى ما سبق يلاحظ فيه أمران:

الأول: استبعاده حق الله – تعالى – الذي له الحكم كله أصلا، وبأمره تأتي السلطة كل من له سلطة من بعده .وبسبب هذا يكون الحكم الديمقراطي مباينا للحكم الإسلامي، لأن الحكم الإسلامي قائم على أن الأصل في الحكم إنما هو لله وحده .

الثاني: عدم إقرار الحكم الديمقراطي بأحكام الشرع ووجوب تنفيذها أولا .وهي الأحكام الشاملة لأحكام الله وأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم واستنباطات المجتهدين من فقهاء المسلمين الذين يستنبطون أحكام الشرع بالإجتهاد الذي أذن الله لهم به .

وبسبب هذا أيضا يكون الحكم الديمقراطي مباينا للحكم الإسلامي، فالحكم الإسلامي يفرض أولا العمل بكل حكم شرعي ثابت بدليل قطعي، أو بدليل ظني اتفق عليه معظم فقهاء العصر الذين هم أهل للإجتهاد أو الترجيح، بالإستناد إلى الأدلة الشرعية .ثم يعطي لجماعة المسلمين المؤهلين أن يضعوا النظم الإدارية التي يرونها أصلح وأنفع وأكثر خيرا للناس، بشرط ألا يعارض شيء منها حكما شرعيا ثابتا، ولو كان حكم إباحة ورد فيه عن الشارع بيان .

إذن: فالحكم الديمقراطي، بموجب تعريفه وتطبيقاته، حكم يعزل الدين عزلا كليا عن شؤون الحكم، ويستبعده عنها استبعادا تاما، فهو بهذا شبيه بالعلمانية "[240]

وقد تبنى طه حسين مبدأ الديمقراطية، حيث قرر– مغتبطا – أن الله عز وجل قد من على المصريين بالنظام الديمقراطي، وبالحياة النيابية التي يحبها المصريون ويفتدونها...والنفوس "[241]

كما حث الدولة على النظام التطبيقي ودعاها إليه، يقول:" ونحن فكرنا قليلا انتهينا إلى أن من أوجب واجبات الدولة المصرية في عشرات الأعوام المقبلة أن تحوط الاستقلال الخارجي، وأن

---

[239] - المرجع نفسه، ص 2116 .

[240] - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص 718 .

[241] - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص 205 .

تقر النظام الديمقراطي في داخل الحدود المصرية، ومهما يكن جهد الأفراد في حياة الاستقلال وتثبيت الديمقراطية، فإن هذا الجهد ليس شيئا بالقياس إلى الجهد الذي يجب أن تبذله الدولة، لأن الدولة أقدر على ذلك وأنفذ إليه وهي لم تقم بعد "[242]

ولم يكتف طه حسين بدعوة الحكومة والأفراد للعمل الجاد من أجل تطبيق هذا النظام والأخذ به، بل دعا إلى تطبيق مبدأ الديمقراطية في التعليم، أيضا، يقول: " لست في حاجة إلى الإطالة في إثبات أن التعليم الأولي والإلزامي ركن أساسي من أركان الحياة الديمقراطية الصحيحة "[243].

و مع أن النظام الديمقراطي لا يخلو من بعض نقاط القوة، إلا أن هذا لا يعني جواز الأخذ به والدعوة إليه فهو مبدأ مصادم للإسلام .

3 – العلمانية واليبرالية:

العلمانية شعار يتستر بالعلم ,وبالتزام ما تبثه الحقائق العلمية، ويوحي ضمناً أويعلن صراحة أن الدين يتناقض مع العلم . وقد كتب طه حسين عدة فصول تحت عنوان (بين العلم والدين) بيّن فيها أن هناك خصومة بين العلم والدين، وبين السياسة والدين،ومن ذلك قوله: " والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى لنفسه الثبات والاستقرار، ولأن العلم يرى لنفسه التغيّر والتجدّد، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته.

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية، لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه، ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطا يقدم ثم لا يكره أن يحجم، ويمضي ثم لا يكره أن يرتد، ويبنى ثم لا يتحرّج من الهدم، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

---

[242] - المرجع نفسه، ص 103 .

[243] - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص 101 .

فالخصومة بينهما أمر لا بد منه، ولكن المسألة في حقيقة الأمر ليست في أن الخصومة واقعة أو غير واقعة، وإنما هي في أن الخصومة ضارة أو نافعة أو بعبارة أدق: المسألة هي أن نعرف هل كتب على الإنسانية أن تشقى بالعلم والدين أو هل كتب على الإنسانية أن تسعد بالعلم والدين؟ أما نحن فنعتقد أن الإنسانية تستطيع أن تسعد بالعلم والدين جميعاً ..."[244].

وزعم طه حسين بوجود خصومة بين الدين والعلم ليس صحيحاً ولا دقيقاً أيضاً، أولاً: "لأن الدين الحق ليس قسيماً مغايراً للعلم ,بل هو علم عن طريق الوحي، فما جاءت به طرق الدين اليقينية هو من قبيل الحقائق العلمية "[245].

ثانياً :لعدم وجود خصومة بين الدين والعلم أصلاً في الإسلام، لأن الإسلام لا يحجر العقل عن طلب العلم، ولا يمنع الإنسان المسلم من العلم والتفكير، ولذلك فلا خصومة بينهما، بل الدين يدعو إلى العلم في آيات كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية كذلك، ويرفع من قدر العلم، قال تعالى: " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون "[246]. ويقول تبارك اسمه: " يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات "[247]إلى غير ذلك من الآيات، يقول صلى الله عليه وسلم : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهلّ الله له به طريقاً إلى الجنة "

كذلك كتب طه حسين فصلاً حول الدستور المصري الذي ينص صراحة أن الإسلام دين الدولة يقول: " وكان هذا النص مصدر فرقة لا نقول بين المسلمين وغير المسلمين من

---

[244] - طه حسين، من بعيد، ص 228 .

[245] - ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، كواشف زيّوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص 184 .

[246] - سورة الزمر، الآية 9.

[247] - سورة المجادلة، الآية 11.

أهل مصر، فقد رضيت القلة المسيحية وغير المسيحية هذا النص ولم تحاور فيه، ولم تر فيه على نفسها مضاضة أو خطراً، وإنما نقول :إنه كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم .

إلى أن يقول :ومعنى ذلك أن العدالة مكلفة أن تمحو حرية الرأي محواً في كل ما من شأنه أن يمس الإسلام من قريب أو بعيد، سواء أصدر ذلك عن علم أو عن غير علم "[248].

وهكذا يبدو من قوله أن حرية الرأي التي يؤمن بها تتنافى مع ما نص عليه الدستور وهو أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام، ثم لا يلبث أن يُعبّر عن هذا المعنى في وضوح تام حينما يقول: " فالمسلمون إذن قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة وهو أن السياسة شيء والدين شيء آخر، وأن نظام الحكم وتكوين الدولة إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أي شيء آخر . وهذا التصور هو الذي تقوم عليه الحياة الحديثة في أوروبا "[249].

ويقول" :من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول "[250].

ولا شك أن الدين الإسلامي نظام شامل ومتكامل يشمل جميع نواحي الحياة من عقائد وعبادات ومعاملات وسياسة واجتماع وأخلاق وغير ذلك ... وكلها تكوّن حلقة واحدة لا يكاد يُعرف لها طرف وما ذاك إلا لأنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، والمسلم حينما يتخذ من الإسلام ديناً له عليه بعد ذلك أن يُعلن بصراحة انتهاجه لكل جانب من جوانبه،

---

[248] - طه حسين، من بعيد، ص 173 – 175 .

[249] - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص 27 .

[250] - المرجع نفسه، ص 25 .

انتهاجه لكل جانب من جوانبه .قال تعالى: " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين "[251].

وقد ظهرت الحرية المطلقة، وهي من أبرز سمات الليبرالية الحديثة، في ظروف الاستبداد الدكتاتوري الذي كان سائداً في أوروبا قبل الثورة الفرنسية، وإبان مصادرة حريّات الطبقات الضعيفة في المجتمع، وحريّات الأفراد الذين لا يملكون انتزاع حقوقهم في معظم المجتمعات الغربية، ونتيجة لهذا انطلق دعاة الحرية ينادون بها مبدأً إنسانياً، وأخذت فئات كثيرة تروّجها[252].

لكن الليبرالية بهذا المصطلح لم تظهر إلا حديثاً وبعد ظهور مبدأ الحرية بزمن .لكن بالرغم من ذلك فمضامين الحرية والليبرالية واحدة تقريباً فهما وجهان لعملة واحدة، فكلتاهما تدعوان إلى الحرية المطلقة في كل شيء، في السياسة والاقتصاد والثقافة والفكر، السلوك وغير ذلك....

"وعند قيام شعار الحرية اندفعت الجماهير مفتونة به، وهي لا ترى من معاني الحرية إلا مساحة محدودة مقبولة معقولة، يتحقّق لها بها الخلاص من الظلم الاجتماعي الذي تعاني منه، والخلاص من الاستبداد الضاغط عليها، والقاهر لإرادتها بقوى ظالمة آثمة، طاغية غاشمة "[253].

وأخذ أعداء الإسلام والفضيلة " يوسّعون من مساحة دلالة الحرية شيئاً فشيئاً، حتى تشمل كل سلوك فردي أو جماعي يحقق أهداف الإفساد في الأرض، وتدمير كلّ القيم الدينية والخُلقية، وإماتة الوازع الديني والخلقي في الأفراد، وتحطيم النظم الاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية وغيرها.....

إن الحرية مثل النار لا تستخدم إلا ضمن حدود وضوابط، وبحذر شديد، ومراقبة تامة، وإلا أكلت الأخضر واليابس، وابتلعت كل شيء أتت عليه.

---

[251] - سورة الأنعام، الآية 162 .

[252] - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، كواشف زيّوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص 223 .

[253] - المرجع نفسه، ص 224 .

إن الحرية المقبولة المعقولة في واقع الناس ذات مجال محدود، وهذا المجال المحدود لا يجوز تجاوزه ولا تعدّيه، لا في منطق العقل، ولا في منطق مصلحة الإنسان في ذاته، ولا في منطق المجتمع البشري.

فإذا تجاوزت حدودها كانت وحشاً مفترساً، أو ناراً هائجة ثائرة محرقة، أو سيلاً عرماً مدمراً، وكانت نذير شؤم وخراب، وفوضى واضطراب، وصراعات بشرية تدمّر الحضارات، وتمهّد لأن تُحلّ بهم سنة الله في الذين خلوا من قبلهم، إهلاك عام وعذاب أليم "[254].

وهكذا دعا طه حسين إلى حرية الرأي وكافح من أجلها كثير، وما أزمة الشعر الجاهلي التي مرّ بها إلا دليل على هذا وعلى النهج الذي انتهجه في حياته، حرية بلا حدود....

ومن المعلوم أن الإسلام لا يحجر على الحريّات، لكنه يهذبها، ويحدّ منها إذا كانت ستغير على الدين والأخلاق والفضيلة وستضيع الحقوق والواجبات، فالإسلام قد أباح " "حريّة تعبير الإنسان عن أفكاره وآرائه، ما لم يكن مضللاً بباطل واضح، أو داعياً إلى ضرٍ أو شرٍ أو أذى، أو مشجعاً على إدحاض الحق ونصرة الباطل، ونشر الظلم والعدوان والفساد في الأرض "[255].

[254] - المرجع السابق، ص 222 وما بعدها .

[255] - نفسه، ص 227 .

الخاتمة

كان البحث شاقا وممتعا في رحلتي العلمية مع أحد أعمدة الأدب العربي الحديث، إن لم يكن عمودها الفقري المهم للغاية .

وقد اجتهدت في هذا البحث أن أقدمه في صورة موضوعية بعيدا عن أي فكرة مسبقة أو إيديولوجية متعصبة له أو عليه .وكانت أعماله النقدية المتصلة بموقفه من الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي، ولاحظت كثيرا من تعسف الدارسين لمواقفه النقدية، وعملت أن أكون منصفة في الأخذ بالرأيين مثلما عملت على البحث على المبررات النقدية التي اعتمدها طه حسين في تجربته النقدية، وكانت له أسبابه ودواعيه الموضوعية في كل ما ذهب إليه .

وقد كان لبيئة طه حسين المليئة بالمستشرقين الأجانب مع ما يحملونه من جرثومة العداء للدين والحقد على المسلمين، أعظم الأثر على فكر طه حسين فيما بعد، كما كان لزوجته الفرنسية (سوزان) أثر عليه أيضا في كيله الشديد إلى حب فرنسا والاعتزاز بها، وكثرة الثناء عليها في أكثر من محفل .

وقد ترك بصمات واضحة في الجيل الذي تلا جيله فأخلص بدوره، للنقد المنهجي، ولمفهوم التجديد، والحرص على امتلاك ثقافة عربية أخرى أجنبية.لأن طه حسين كان قدوة الناقد الذي ربط اتصالا حميما بثقافته العربية القديمة وفي الآن ذاته، كان على اتصال بالتراث الإنساني حتى يتسنى له إعادة اكتشاف هذا التراث العربي القديم. ولقد كان لطه حسين انفتاح ممزوج بالإعجاب على الأدب والفلسفة اليونانيين، والفلسفة والفكر الوضعي الغربي، وهذا ما نبَّه الباحثين إلى أهمية مواكبة ما يصدر في الآداب الأجنبية.

من خلال هذه الدراسة حاولت أيضا تجلية موقف طه حسين تجاه الدين ، بحيث يظهر بوضوح ما كان يرمي إليه ويهدف إلى تحقيقه من التشكيك في الثوابت، والذوبان في حضارة الغرب .مع ما يصاحب ذلك من هدم الرموز الإسلامية، والإعلاء من شأن شرذمة من الغرب، لا يعدون إلى جانب عظماء الإسلام شيئا يذكر .

وإن كنت في بداية الطريق استصغر نفسي كثيرا أن أنقد عميد الأدب العربي، ولكن بعد أن بدأت أغوص في قراءة كتبه وكتب خصومه ظهر لي عظيم الهالة الإعلامية التي أحيط بها طه حسين، فهو وإن كان جذاب الأسلوب، رحب الخيال – خاصة في قصصه وروايائه – لكنه يصغر كثيرا عما وصف به منذ زمن وإلى وقتنا الحاضر، وهذا ما زاد قناعاتي أن طه حسين صنعة الإستشراق وربيب المستشرقين، فلدينا من أرباب القلم وأساطين الأدب من هم أعظم منه قدرا وأعمق أثرا .

وعلى الرغم من هذه المكانة التي وصل إليها طه حسين علميا وسياسيا، و بالرغم من كثرة المتلقين حوله حماية ورعاية له، إلا أن الكثيرين من الغيورين على الدين نافحوا وكافحوا بكل قوة آرائه ونظرياته التي تطعن في أعظم مقوم من مقومات بقائه وعزته، كتاب الله عز وجل .وانبرى الكثير منهم مدافعا بقلمه ليظهر الحق ويزهق الباطل، ومازالوا بالاعتراضات والمطالبات حتى تحقق لهم بعض ما يسعون إلى تحقيقه، فصودر كتاب طه حسين(في الشعر الجاهلي)، وأخرج طه حسين من الجامعة، بعد ردهة من الزمن، لكنه ما لبث أن عاد .

وانحرافات هذا الرجل كثيرة جدا، فهو – بلا شك – رأس من رؤوس التغريب في زماننا المعاصر، وقد حاول طيلة حياته إلقاء الشبهات وإثارة الشكوك ومحاربة الإسلام بشتى الطرق، وفق خطة مدروسة صاغها الغربيون الذين ربوه على أعينهم، ولهذا سوف أقوم باستخلاص أهم هذه الانحرافات وأخطرها:

2 إحياؤه ودعوته إلى مذهب الشك الذي تلقاه عن ديكارت .

3 تدور فكرة كتابه في الشعر الجاهلي على أن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة العرب قبل ظهور الإسلام، أي لا يمثل الحياة التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة بما لها من جوانب وأجواء إذ هو شعر مصطنع مفتعل .كذلك وصف القرآن أنه دين محلي بشري وليس وحيا إلهيا.وكان من أخطر وأعظم أقواله أيضا: " للتوراة

أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي".

4 أما كتابه على هامش السيرة فقد حشاه بالأساطير والروايات الباطلة مبررا موقفه هذا بأن هذه الأساطير ترضي ميل الناس إلى السذاجة وترفه عنهم حين تشق عليهم الحياة .

5 إعلاء الفرعونية وإنكار الروابط العربية والإسلامية بقوله: " أن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين ولو وقف الدين الإسلامي حاجزا بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه " .

6 إشاعة دعوة البحر الأبيض لحساب بعض القوى الأجنبية والقول بأن المصريين غربيو العقل والثقافة .وأن الفكر الإسلامي قام على أثار الفكر اليوناني القديم ولذلك فلا مانع من تبعيته في العصر الحديث للفكر الغربي .

7 الإدعاء بأن الشاعر أبا الطيب المتنبي لقيط وهي دعوى باطلة أقام عليها كتابه (مع المتنبي) متابعا رأي المستشرقين وهادما لبطولة شاعر عربي نابه .

8 إعادة خلط الإسرائيليات والأساطير إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها المفكرون المسلمون منها والتزيد في هذه الإسرائيليات والتوسع فيها مما أدى بـ مصطفى صادق الرافعي بوصف رأيه بأنه تهكم صريح .

9 حملته على الصحابة من الصفوة المسلمة وتشبيههم بالسياسيين .

10وصف الفتح الإسلامي لمصر بأنه استعمار عربي وعبارته هي: "خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان. جاءتهم من الفرس والرومان والعرب"

هذه بعض من مخالفات طه حسين أو مواقفه النقدية .

هناك من يعتقد أن الاعتراف بمكانة طه حسين الأدبية المزعومة ووصفه بالبطولة العبقرية دليل على المقدرة الأدبية والتنور الفكري والذوق الثقافي الرفيع، لكن الدور الذي قام به في العالم الإسلامي تمخض عنه – وللأسف – عدد قليل من تلامذته الذين يرددون أفكاره ويعظمون نظرياته، حتى وإن طعنت في مقدسات الأمة وثوابتها .هذا الأمر أوجد لنا ما يسمونه بالحداثيين الذين يعتبرون طه حسين أحد رواد الحداثة .وقد وصلوا إلى درجة من

الضلال – والعياذ بالله – لم يصل إليها طه حسين نفسه، فالحداثة تعني في أحد معانيها التمرد على كل قديم ...التمرد على اللغة ... التمرد على الدين ...بل التمرد على الله .

وإن الشك برجوع طه حسين عن آرائه في نهاية حياته لا يعني التغاضي عما في كتبه من سموم بأي حال من الأحوال، فرجوعه – إن صح – لا يمنع من التحذير مما تتضمنه كتبه وقصصه ورواياته من أفكار دخيلة كفيلة بتدنيس العقول الناشئة، فإن كان طه حسين قد تاب ورحل، فإن سمومه مازالت تنحز في جسد الأمة وتهز عقائد شبابها، وخاصة أنه من الأدباء الذين يحتفي بفكرهم، وتسعى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة إلى إلقاء الضوء على مؤلفاته بل وصل بهم الأمر بتجسيد قصصه ورواياته على شكل أفلام ومسلسلات التي تظهره وكأنه عملاق الأدب والفكر لهذا العصر .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا إتباعه وحبه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه وبغضه، وأعنا على قول الحق من الرضا والغضب، كما أدعوه سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ودفاعا عن الإسلام ومبادئه، وأن يقيِّض أقلامنا وأفكارنا لطاعته ومرضاته، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

قائمة المصادر والمراجع:

1– ابن منظور، معجم لسان العرب، ج11،دار صادر، بيروت.

2 –ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية إسماعيل نجفي، إيران ج5.

3– أحمد علبي، طه حسين رجل وفكر وعصر، دار الآداب، بيروت، 1985.

4– أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، دار الاعتصام.

5 – جابر رزق، طه حسين الجريمة والإدانة، دار الاعتصام.

6 – جابر عصفور، المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983.

7 – جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، دار الهلال.

8 – حلمي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي في مصر، ط1، القاهرة: دار المعارف، 1966.

9 – سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ج1، دار ماجد عيري للنشر والتوزيع، ط1، 2004.

10 –سعيد بن ناصر الغامدي، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، دار الأندلس الخضراء، جدة، ج3، ط1، 2003.

11 – طه حسين، أديب، مكتبة الأسرة، 1998.

12 – طه حسين ، الأيام، ج2، المجموعة الكاملة، المجلد الأول ،ط 2،بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1974.

13 – طه حسين، الأيام ج3، القاهرة: دار المعارف، 1974.

14 – طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ط6، دار المعارف، 1963.

15 – طه حسين، رحلة الربيع والصيف، دار العلم للملايين، بيروت، 1957.

16 – طه حسين، الشيخان، دار المعارف بمصر، ط3، 1966.

17 – طه حسين، الفتنة الكبرى، ج1، دار المعارف.

18 – طه حسين، الفتنة الكبرى، ج2، دار المعارف، ط12.

19 –طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، القاهرة، ط3، 1933.

20 – طه حسين، الشعر الجاهلي، دار المعارف، تونس، ط1، 1997.

21 – طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط2.

22 – طه حسين، مع المتنبي، ط11، القاهرة: دار المعارف، 1976.

23 – طه حسين، من بعيد، الشركة العربية للطباعة والنشر.

24 – طه حسين، الوعد الحق، دار المعارف بمصر، ط 28.

25 – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، كواشف زيّوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم،دمشق، ط3، 1998.

26 – فاروق العمراني، تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، الدار العربية للكتاب، 1988.

27 – الفيروز أبادي الشيرازي، القاموس المحيط، ج4، مكتبة النوري، دمشق، د.ت.

28 – كارلو نالليو، ، تاريخ الآداب العربية، طه حسين، (مقدمة)، دار المعارف، القاهرة ط2، 1970.

29 – كمال نشأت، النقد الأدبي الحديث في مصر: نشأته واتجاهاته، معهد البحوث والدراسات العربية: بغداد، 1983.

30 – محمد أحمد عرفة، نقض مطاعن فى القرآن الكريم، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط2، 1986.

31 – محمد أحمد الغمراوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1969.

32 – محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي مكتبة وهبة، ط4.

33 – محمد الخضر حسنين، نقض كتاب الشعر الجاهلي، المكتبة الأزهرية للتراث، بالقاهرة.

34 – محمد رجب البيومي، موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض.

35 – محمد زغلول سلام، النقد الأدبي الحديث: أصوله قضاياه ومناهجه، القاهرة، الأنجلو مصرية، (د.ت).

36 – محمد صادق الكاشف، طه حسين بصيراً، مكتبة الخانجي بالقاهرة: مطبعة المدني، ط1، 1987.

37 – محمد طه الحاجري، المرحلة الأزهرية في حياة طه حسين، مجلة الثقافة 25، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1975.

38 – محمد مسرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم، ط2، 1988.

39 – محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، ج2.

40 – محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد، ط1، 1962.

41 –محمود مهدي الاستانبولي، طه حسين في ميزان الأدباء، المكتب الاسلامي، ط1، 1983.

42 – مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، 2002.

المذكرات:

1- أمل رشيد، مذكرة المنطلقات الإستشراقية في الرؤية النقدية عند طه حسين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية اللغة والأدب العربي جامعة تلمسان، سنة 2008 – 2009 م.

2- حامدي الزهرة / ولحسن ناصر بديعة، تجليات عاهة العمى في أسلوب طه حسين، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس، كلية اللغة والأدب العربي جامعة تلمسان، سنة 1999 – 2000.

3- محمد تاج، المنظور الإستشراقي في الأدب العربي، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان،2007.

المراجع بالفرنسية:

1- -Meftah Tahar ,Taha Husayn sa critique littéraire et ses siurces françaises ,maison arabe du livre

الفهـــرس:

التشكـرات

الإهـداء

المـقدمة

الفـصل الأول: الرؤية النقدية عند طه حسين من منظور عربي.....1 - 38

المبحث الأول: طه حسين الكتابات النقدية الأولى

أثر سيد بن علي المرصفي وكارلو نالليو في تكوينه الأدبي.....7

تأثره بأحمد لطفي السيد وعيد العزيز جاويش.....14

المبحث الثاني: نماذج من النقد عند طه حسين

نماذج من النقد اللفظي.....28

نماذج من النقد العلمي.....32

المبحث الثالث: مفهوم النقد عند طه حسين.....35

المبحث الرابع: طه حسين بين النقد الأدبي والتاريخ الأدبي.....37

الفـصل الثاني: النقد الأدبي عند طه حسين من منظور غربي.....40 – 101

المبحث الأول: منهج الشك الديكارتي عند طه حسين

أ – أسس منهج ديكارت.....46

ب – طه حسين والمبررات النقدية في اختيار منهج ديكارت.....47

المبحث الثاني: طه حسين والشعر الجاهلي

1 – مفهوم الانتحال في المعاجم العربية.....51

2 – الانتحال عند طه حسين.....53

3 – دوافع الشك عند طه حسين 54

4 - أسباب نحل الشعر في زعم طه حسين.....55

5 – بعض الشعراء المشكوك في شعرهم 64

المبحث الثالث: مخالفات طه حسين للإسلام

1 – القـــرآن.....71

2 – السنـة النبـــوية.....85

3 – الصحـــابة.....90

المبحث الرابع: مخالفات طه حسين السياسية والاقتصادية

1 – القـــومية.....100

2 – الديمـــقراطية.....102

3 – العلمـانية و الليبرالـية.....105

الخـاتمة.....110

قـائمة المصادر والمراجع.....106

الفهرس:.....111